



دروس في تزكية النفس





دروس في تزكية النفس



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: دروس في تزكية النفس
إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة
نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
تاريخ الطبع: أيلول ٢٠١٠ م. ١٤٣١هـ
طبعة جديدة ومنقّحة

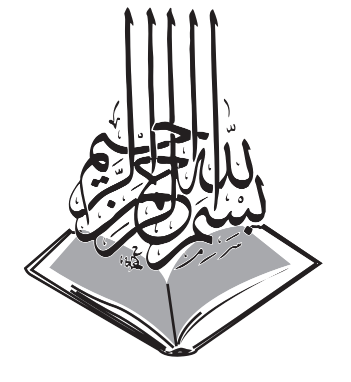


مركز نون للتأليف والترجمة
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس
في
تزكية النفس

مركز نون للتأليف والترجمة
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس




المقدّمة

الحمد للّه ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيِّدنا ونبيِّنا أبي القاسم محمَّد بن عبد اللّه، وعلى آله الطيّبين الطاهرين...

وبعد،

فإنَّ هذا الكتاب (تزكية النفس) هو من ضمن سلسلة العلوم والمعارف الإسلاميِّة التي يصدرها مركز نون للتأليف والترجمة، لتلبية حاجات الدروس والدورات الثقافيَّة المتنوعة، وهو يتناول بالبحث والتحليل موضوعات هامّة في مادة الأخلاق الإسلاميِّة، والسير والسلوك وتزكية النفس الإنسانيّة.

وقد استمدَّ الكتاب معظم مضامينه من كتاب العلامة الشيخ إبراهيم الأميني (تزكية النفس وتهذيبها)، حيث تمّ تلخيص بعض أبحاث هذا الكتاب وتبويبها ووضعها في إطار منهجيّ ودراسيّ مفيد مع جملة أبحاث إضافية أخرى، رأينا أنَّ المستويات التي يخاطبها هذا الكتاب بحاجة إليها.

وقد عمدنا في هذه الطبعة الجديدة إلى تنقيح أكثر للمطالب السابقة، وتحقيقها، وإعادة تبويبها، وترتيبها موضوعيّاً، وإدراج بعض الفقرات التي وردت في محاضرةٍ للشهيد محمد باقر الصدر حول حبّ الدنيا.

كما اهتمّ المركز بإخراج الكتاب في حلّة جديدة، باعثة على سهولة القراءة والعود إلى الكتاب والرغبة فيه.

ونحن إذ نقدِّم هذا الكتاب لطلاب المعرفة والفضيلة، ننصح الطلاب والأساتذة الرجوع إلى المصدر الذي استمدَّ منه هذا الكتاب أبحاثه إن أرادوا التوسّع، سائلين المولى سبحانه أن ينفع بكتابنا هذا المجاهدين وكلّ من يبتغي الكمال والسعادة والوصول إلى مقامات القرب الإلهيّ، والله من وراء القصد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة



الدرس الأوّل

التزكية ومعرفة النفس



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى معنى التزكية وأهمّيّتها.

٢. أن يميّز الخصائص الإنسانيّة.

٣. أن يتعرّف إلى حقيقة النفس الإنسانيّة وقيمتها.

٤. أن يمتلك الدافع للبدء بعمليّة تزكية النفس.



تمهيد

كما أنَّ الإنسان يهتم بجسده وبصحته، فيغذيه بما يوجب نمّوه وسلامته، ويقيه من الآفات والأمراض، ويبادر إلى الطبيب عند شعوره بالمرض أو الألم ليعالجه منه، فيستعين بالجسد السليم القويّ على قضاء حوائجه، فكذلك النفس البشريّة، ينبغي الإهتمام بها وتغذيتها بما يوجب رقيّها وسلامتها، وينبغي العمل على وقايتها من الامراض، وإذا أُصيبت بآفة أو مرض بادر إلى علاجها مستعيناً بتقوية الجانب الإنساني فيها. فتنميتها بالفضائل والأخلاق الحسنة حتى يقوى فيها جانبها الإنساني وبعدها المعنويّ هو تزكية النفس.

أهميَّة تزكية النفس

تظهر أهميّة تزكية النفس بملاحظة الأمور التالية:

١ - الهدف من بعثة الأنبياء:

فقد وصلت إلى درجة أنَّ اللّه تعالى جعلها هدفاً أساسيّاً لبعثة الأنبياء عليهم السلام، وقدجاء الأنبياء عليهم السلام من أجل مساعدّة الناس على بناء أنفسهم، وذلك بتعليمهم مكارم الأخلاق وفضائلها، وتربيتهم عليها، وإرشادهم إلى طرق كبح

الميول والرغبات النفسيّة المخالفة للعقل والشرع.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**عليكم بمكارم الأخلاق فإنَّ الله عزَّ وجل بعثني بها**»[٢].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق**»[٣].

٢- النجاة يوم القيامة

أمَّا عن أثر التزكية يوم القيامة فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق**»[٤].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أكثر ما تلج به أمَّتي الجنّة تقوى الله وحسن الخلق**»[٥].

اهتمام الإسلام بتزكية النفس

لقد أكّد الإسلام كثيراً على التزكية واهتمَّ اهتماماً خاصاً بالأخلاق، ولذلك نجد أنَّ الآيات ذات المضمون الأخلاقيّ في القرآن الكريم أكثر من آيات الأحكام والتشريع، بل القصص القرآنيَّة ذات أهداف أخلاقيَّة، والأحاديث الواردة عن المعصومين، كثير منها يرتبط بالأخلاق.

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٧٥.
(٣) النمازي، علي، مستدرك سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٨٢.
(٤) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٩٩.
(٥) م.ن، ص١٠٠.

«**حُسن الخلق**»، ثمَّ أتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فقال ﷺ: «**حُسن الخلق**»، ثمَّ أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال ﷺ: «**حُسن الخلق**»، ثمَّ أتاه من ورائه فقال: ما الدين؟ فالتفت إليه فقال ﷺ: «**أما تفقه؟! هو أن لا تغضب**»[1].

كما أنَّ الثواب والعقاب اللذان يترتَّبان على الأمور الأخلاقيّة ليسا بأقلّ من الثواب والعقاب اللذين يترتَّبان على بقيَّة الأمور.

معرفة النفس ومراتبها

النفس والروح في معنى واحد، وهي ذات حقيقة واحدة إلّا أنَّ لها أبعاداً وجهات متعدّدة:

١ - جهة رشد ونموّ مع نموّ الجسد.

٢ - جهة حركة وشهوة وغضب.. كما في بقيّة الحيوانات وهذا هو بعدها الحيوانيّ.

٣ - جهة كمال، لأنَّها تدرك وتفكر وتعقل، وهذا هو بعدها الإنسانيّ وهو أسمى المراتب الإنسانيّة وأرقاها.

وبذلك تكون للنفس مرتبتان: مرتبة دنيا، ومرتبة عليا.

فالنفس بمرتبتها الدنيا هي حيوانيّة الميول، لها صفات وآثار الحيوان، وتميل كما يميل أيُّ حيوان، وبمرتبتها العليا هي إنسانيّة ملكوتيَّة طاهرة كاملة، إلّا أنّها تحتاج لكمالها إلى التربية والتهذيب، فالإنسان يحتاج في المرتبة الدنيا إلى الماء والطعام والمسكن والهواء والزواج وغير ذلك، فهو حيوان بالفعل، إلّا أنَّ النفس تقبل النموّ والتربية، وتميل إلى الكمال والصفات الكماليّة من علم

(١) المحجّة البيضاء، ج٥، ص ٨٩.

ومعرفة وإحسان وإيثار وعدالة وعفو واستقامة وصدق وأمَّانة وشجاعة وكرم وحب للخير ودفاع عن المظلومين وغير ذلك، وبهذا يكون كمالها وبذلك تصل إلى مرتبتها العليا.

كرامة الإنسان بروحه

إنَّ الذي يجعل الإنسان إنساناً ويميّزه عن سائر الحيوانات؛ هو بعده الإنسانيّ وروحه الملكوتيّة المجرَّدة، وهذا الجانب بالذات هو مورد التكريم الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١].

كما أنَّ هذا الجانب هو الذي يشكِّل موضوعاً للتزكية والتربية وليس الجانب الحيوانيّ الماديّ. صحيح أنَّ الإنسان حيوان وله حاجات على هذا المستوى، لكنَّ تلبية حاجات البعد الحيوانيّ ليست هدفاً بذاتها، بل هي من أجل خدمة البعد الإنسانيّ وتكميل حياته الإنسانيّة، فلو جعل الإنسان بعده الحيوانيّ هدفاً، ولم يكن همّه في الحياة إلا الأكل والشرب واللباس وإرضاء شهواته وغرائزه الحيوانيّة، لَفَقَد إنسانيّته ولسقط في دَرْكِ الحيوانيّة وإن كان بصورة إنسان، وهذا ما عبَّر عنه القرآن في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢].

أقسام النفس:

١- قسم يعتبر النفس جوهراً ثميناً وأمراً ملكوتيّاً جاء من عالم الكمال، وأنّها منشأ كلّ الفضائل والقيم الإنسانيّة، ولذلك فيجب تربيتها على الأخلاق

---

(١) سورة الإسراء، الآية:٧٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

والقيـم، من قبيل قول أمير المؤمنيـن عليه السلام: «**إنَّ النفس لجوهرة ثمينة من صانها رفعها ومن ابتذلها وضعها**»[1].

٢- وقسـم يصف النفـس بأنَّها عدوّ وموجـود شرّير، وأنّها منشـأ السيّئات، فيجب لذلك محاربتها وتعنيفها، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾[2].

وقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**»[3].

ولا تعارض بين هاتين الطائفتين من النصوص، لأنَّ مورد المدح في الطائفة الأولى هو البعد الإنسانيّ، والمرتبة العليا من النفس، بينما مورد الذمّ في الطائفة الثانية هو البعد الحيوانيّ منها، فإذا قيل: احفظ نفسك وربِّها، فالمراد من ذلك المرتبة الإنسانيّة. وإذا قيل: اقهرها، فالمراد بذلك المرتبة الحيوانيّة، وذلك لأنَّ كلا المرتبتين في حالة صراع وتجاذب دائمين، فالذات الحيوانيّة تسعى دائماً لإرضاء رغباتها وميولها، وتحاول أن تقطع طريق الرقيّ والتكامل على النفس الإنسانيّة، وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الذات الإنسانيّة تسعى دائماً للسيطرة على الرغبات والغرائز الحيوانيّة من أجل طيّ المراحل الرفيعة للكمالات الإنسانيّة، حتى تنال مقام القرب الإلهيّ. فإذا تغلَّب البعد الإنسانيّ في هذا الصراع ارتقى الإنسان في مدارج الكمال، ولو تغلَّب البعد الحيوانيّ فيه انحدر الإنسان في وادي الضلال والإنحراف.

(١) غرر الحكم، ص ١٣٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٣) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٧٠، ص٦٤.

ضرورة تنمية البعد الإنساني

إنَّ الإنسان إذا التفت إلى حقيقته وبعده الإنسانيّ وعرف نفسه حقَّ المعرفة سيدرك أنَّه أتى من عالَم الكمال، عالَم القدرة والعلم والمعرفة والرحمة والإحسان والخير والعدالة، وأنَّه لا بدّ أن يسعى إلى الكمال، وأن يكون هدفه هو الوصول إلى مقام القرب الإلهيّ، حتى يتلائم مع ذلك العالَم الذي أتى منه، والقيم الأخلاقيّة والإنسانيّة هي تلك الكمالات التي تحتاجها النفس لبلوغ الكمال، والإنسان يستطيع أن يدرك تلك القيم والفضائل بفطرته.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[١].

ومن هنا، فقد جاء الأنبياء عليهم السلام لإيقاظ الفطرة وتعريف الناس بحقيقتهم، وإرشادهم إلى طريق المعرفة والفضائل والمكارم الأخلاقيّة، من أجل إعانتهم على طيّ مدارج الكمال ونيل مقام القرب الإلهيّ.

ولذلك أكّد الإسلام على معرفة النفس كمقدّمة للتزكية وأَولى ذلك اهتماماً خاصّاً. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**معرفة النفس أنفع المعارف**»[٢].

وقال أيضاً: «**من عرف نفسه جلّ أمره**»[٣].

المقصود من معرفة النفس:

والمقصود من معرفة النفس معرفة هويتها الإنسانيّة، بمعنى أن يعرف الإنسان مقامه الواقعي في عالم الخلقة، فيعلم أنَّه ليس حيواناً، ولم يخلق لأجل أن يعيش حياة حيوانيّة، بل هو موجود ملكوتيّ خلق عاقلاً ومختاراً وحرّاً، وإنَّ

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧-١٠.

(٢) غرر الحكم، ص ١٣٩.

(٣) م.ن.

عليه أن ينمِّي بُعدهُ الإنسانيّ لا الحيوانيّ، ويلاحقه بالتزكية، ويربِّي فيه القيم والفضائل الأخلاقيّة، حتى يصل إلى الكمال المنشود ويكون لائقاً بحمل الأمانة وخلافة اللّه على الأرض.

خلاصة الدرس

١ - تزكية النفس، تنميتها بحسن الأخلاق حتى يقوى جانبها المعنويّ.

٢ - إنَّ تزكية النفوس هدف مهمّ وأساس للأنبياء عليهم السلام.

٣ - لتزكية النفس آثار مهمّة جدّاً وهي مفتاح سعادة الإنسان.

٤ - مورد التزكية هو البعد الإنسانيّ من نفس الإنسان.

٥ - للإنسان بعدان: إنسانيّ وحيوانيّ، وهما في حالة صراع حتّى يغلب أحدهما الآخر.

٦- إنَّ هدف الإنسان هو بلوغ الكمال والوصول إلى مقام القرب الإلهيّ، ولا يكون ذلك بدون تزكية النفس.

العناية الإلهيّة

من عناية اللّه سبحانه بعباده أنَّه وهبهم العقل، ووهبهم القدرة على تهذيب نفوسهم وتزكيتها، وأرسل الأنبياء والأوصياء ليعملوا على هدايتهم واصلاحهم ليتخلَّصوا من عذاب جهنّم..

وعندما لا تنفع كلّ هذه الوسائل في تنبيه الناس وإلفاتهم، فإنَّ اللّه سبحانه ينبّههم بوسائل أخرى وعن طرق أخرى، بالإبتلاء... بالمصائب.. بالفقر.. بالمرض.. كالطبيب الحاذق وكالممرّض الماهر الحنون الذي يحاول تخليص مريضه من داء عضال..

إذا كان العبد مورد عناية اللّه سبحانه، فإنَّه يبتلى بصنوف الابتلاء حتى يلتفت إلى خالقه تعالى إسمه، ويهذّب نفسه، هذا هو الطريق ولا طريق غيره، ولكن إذا لم يطو الإنسان بنفسه هذا الطريق ولم يحصل على النتيجة المطلوبة وكان مستحقّاً لنعمة الجنّة، فإنَّ اللّه يشدِّد عليه في حال النزع، لعلَّه يتذكر ويتنبَّه، وإذا لم ينفعه هذا تأتي موقظات القبر وعالم البرزخ والعقبات التي تتبعه.. وكلها تستهدف إيقاظ هذا الإنسان حتى لايصل به الأمر إلى جهنّم.. وكلّ هذه المراحل الإيقاظية عناية إلهية تستهدف المنع من وصول الإنسان إلى جهنّم واستحقاقه لها..

فلو أنَّ إنساناً لم تنفع معه كلّ هذه الموقظات والملفتات فماذا تكون عاقبته؟ هنا لا مجال بعد لأيِّ شيء، ويصبح لزاماً أن يوقظ بالنار.

إنَّ الإنسان الذي لا تنفع معه كلّ هذه الوسائل لا بدّ من إصلاحه بالنار، كالمعدن الذي لا يمكن تحويله إلى معدن خالص إلَّا بالنار.

إحذروا أن توصلكم أعمالكم إلى هذه الدرجة فيحلَّ عليكم غضب اللّه. إنَّ أحدكم لا يستطيع أن يقبض لمدّة دقيقة واحدة على حصاة محماة، فاتّقوا نار جهنّم، وأبعدوا عن الحوزات العلمية هذه النيران، هذه الإختلافات، طهِّروا قلوبكم من النفاق، حسِّنوا سلوككم مع عباد اللّه، وانظروا إليهم بعطف وحنان. ليكن لكم موقف صارم من العصاة لعصيانهم. مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر.

وأمَّا المؤمنون والصالحون فاحترموا العالم منهم لعلمه، واحترموا من هو في سبيل الهداية لأعماله الصالحة، ليكن سلوككم مثالياً. أحبّوا الناس وحادثوهم وآخوهم. هذِّبوا أنفسكم، أنتمّ تريدون هداية الأمَّة وإرشادها... والشخص الذي لا يستطيع إصلاح نفسه وإرادته فكيف يستطيع هداية الآخرين وإصلاح إرادتهم؟!

الإمام الخميني قدس سره **«الجهاد الأكبر»**



الدرس الثاني

القلب



أهداف الدرس

١. **أن يتعرّف الطالب إلى حقيقة القلب ودوره.**

٢. **أن يبيّن خطورة أمراض القلب.**

٣. **أن يتعرّف من هم أطبّاء القلوب.**

٤. **أن يعدّد مراحل تزكية النفس.**





١- القلب في القرآن الكريم

للقلب مكانة خاصّة في القرآن الكريم، والمراد به ذلك الشعور والإحساس الذي ترتبط به إنسانيّة الإنسان، فهو عبارة أخرى عن النفس الإنسانيّة، ولذا تنسب إليه الأعمال النفسيّة، من قبيل التعقّل والإيمان والكفر والنفاق والهداية والرحمة والغفلة وغيرها من الحالات التي وردت في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[١].

﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٢].

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

سلامة القلب ومرضه

إنَّ كلّ أعمال الإنسان تنبع من قلبه، ولذا هو مفتاح السعادة، ومن الضروريّ أن يُعتنى به؛ لأنّه قد يُصاب بالمرض، يقول تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾[٤].

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٣) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠.

والأمراض التي تصيب القلب كثيرة كالكفر والنفاق، والتكبّر، والحقد، والغضب، والخيانة، والعُجْب، والخوف، وسوء الظنّ، وقول السوء، والتهمة، والغيبة، والظلم، والكذب، وحبِّ الجاه، والرياء، والقساوة، وغير ذلك من الصفات السيّئة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[1]، وقد يكون القلب سليماً من هذه الأمراض، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2].

ولا بدَّ من التأكيد على أنَّ أمراض القلب ذات أثر خطير، لأنَّه إذا كانت أمراض البدن يقتصر ضررها على الدنيا، فإنَّ أمراض القلب يعمّ ضررها الدنيا والآخرة معاً، وتوقع الإنسان في الشقاء الأبديّ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[3].

إنَّ الإيمان والعمل الصالح وحسن الأخلاق، كلّ ذلك ينير القلب ويدفع عنه أمراضه، في حين أنَّ الكفر والعمل السيءّ وسوء الأخلاق، كلّ ذلك يؤدّي إلى اسوداد القلب وإصابته بالآفات.

٢- القلب في الأحاديث

ركَّزت الأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام على مسألة القلب، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي على شيء من الخير وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء فالخير والشر يعتلجان**[4]**، فما كان منه أقوى غلب عليه، وقلب مفتوح فيه مصباح يزهر فلا يُطفأ نوره إلى يوم**

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٨-٨٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٤) أي يتصارعان.

القيامة، وهو قلب المؤمن»[١].

وما يستفاد من هذا الحديث هو أنَّ القلب ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - **قلب الكافر:** قلب انحرف عن فطرته فلا خير فيه، ولم يعد له من هدف إلّا الدنيا، وأعرض عن ربِّه فأصيب بالعمى وغشيته الظُلُمَة.

٢ - **قلب المؤمن:** قلب قبّلته الله، أضاء فيه مصباح الإيمان، يرغب في العمل الصالح ومكارم الأخلاق، عيناه مبصرتان بنور إيمانه.

٣ - **القلب المنكّت:** وهو قلب فيه من نور الإيمان، لكن فيه أيضاً من سواد المعصية، وخيره وشرّه في حال صراع، فما غلب منهما سيطر على هذا القلب.

قساوة القلب

يكون القلب في بداية الأمر مستعدّاً للإستجابة لنداء الفطرة، فإن لبَّى النداء أصبح قلباً نورانيّاً، يضيء فيه مصباح الإيمان، أمَّا إذا تجاهل نداء فطرته، وخالف ميول الخير لديه، فإنَّ هذا القلب سوف تخيِّم عليه الظلمة، وتعرض عليه القسوة شيئاً فشيئاً.

ويتحدّث القرآن الكريم عن هذا الأمر فيقول: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

نعم إنَّ لقسوة القلب آثاراً خطيرة جدّاً في الدنيا وفي الآخرة، حيث يصبح قلباً مقفلاً لا يصدر منه الخير، ويظهر في الآخرة بأبشع الصور.

(١) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤٢٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٣.

أطباء القلوب

إذا أردنا أن نحافظ على سلامة قلوبنا ونتجنَّب الأمراض، فلا بدّ من الطبيب الحاذق، أمَّا أطباء القلوب فهم الأنبياء عليهم السلام، لأنَّهم العارفون بحقيقة القلوب وما يصلح لها وطرق علاجها، ولذا يتحدّث أمير المؤمنين عليه السلام عن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: «**طبيب دوَّار بطبِّه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه**[1]، **يضع من ذلك حيث الحاجة إليه**»[2].

تهذيب النفس وتكميلها

بعد أن علمنا أنَّ لتزكية النفس أهميَّة خاصّة في الإسلام، وأنَّ لها نتائج خطيرة في الدنيا والآخرة، وأنَّه لا بدّ للإنسان أن يسعى لتزكية نفسه ما دام أنَّ هناك صراعاً حقيقيّاً بين بُعدَيهِ الإنسانيّ والحيوانيّ، نشير هنا إلى أنَّ عمليَّة تزكية النفس تتمُّ في مرحلتين: مرحلة التهذيب، ومرحلة التكميل.

المرحلة الأولى: ويعمل فيها على تصفية القلب والنفس من الأمراض والأخلاق السيّئة وآثار الذنوب.

المرحلة الثانية: ويعمل فيها على تكميل النفس وتربيتها بالمعارف الحقّة ومكارم الأخلاق والعمل الصالح.

والسالك إلى الله تعالى يجب أن يقوم بالأمرين معاً، وإلّا لن يبلغ درجات القرب، لأنَّهما يكملان بعضهما، وسوف نتحدَّث عن هاتين المرحلتين في الدروس القادمة.

(١) مواسمه جمع ميسِم وهو المكواة، يُجمع على مواسم ومياسم.
(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٠٨.

خلاصة الدرس

١ - المراد بالقلب الشعور والإحساس الذي ترتبط به إنسانيّة الإنسان، وهو تعبير آخر عن النفس الإنسانيّة.

٢- كما أنَّ البدن يتعرّض للمرض فإنَّ القلب أيضاً يتعرّض للأمراض.

٣- المرض الذي يصيب القلب ذو أثر خطير، لأنَّ نتائجه لا تقف عند حدود الدنيا.

٤ - قسمت روايات المعصومين عليهم السلام القلب إلى ثلاثة أقسام: قلب المؤمن، قلب الكافر، والقلب المنكّت.

٥- تزكية النفس تكون بأمرين:

أوّلاً: تصفية القلب، وخصوصاً من مرض القسوة.

ثانياً: تكميل النفس بالمعارف الحقَّة، والأخلاق الحسنة، والعمل الصالح.

علاج المفاسد الاخلاقية

إنَّ أفضل علاج لدفع المفاسد الأخلاقيّة، هو ما ذكره علماء الأخلاق وأهل السلوك، وهو أن تأخذ كلّ واحدة من الملكات القبيحة التي تراها في نفسك، وتنهض بعزم على مخالفة النفس إلى أمد، وتعمل على عكس ما تروّجه وتتطلَّبه منك تلك الملكة الرذيلة.

وعلى أيّ حال، اطلب التوفيق من اللّه تعالى لإعانتك في هذا الجهاد، ولا شكّ في أنَّ هذا الخُلُق القبيح سيزول بعد فترة وجيزة. ويفرُّ الشيطان وجنوده من هذا الخندق، وتحلُّ محلّهم الجنود الرحمانية.

فمثلاً من الأخلاق الذميمة التي تسبب هلاك الإنسان وتوجب ضغطة القبر، وتعذِّب الإنسان في كلا الدارين، سوء الخلق مع أهل الدار والجيران أو الزملاء في العمل أو أهل السوق والمحلّة، وهو وليد الغضب والشهوة، فإذا كان الإنسان المجاهد يفكّر في السمو والترفّع، عليه عندما يعترضه أمر غير مرغوب فيه، حيث تتوهّج فيه نار الغضب لتحرق الباطن، وتدعوه إلى الفحش والسيّء من القول، عليه أن يعمل بخلاف النفس، وأن يتذكّر سوء عاقبة هذا الخُلُق ونتيجته القبيحة، ويبدي بالمقابل مرونة، ويلعن الشيطان في الباطن ويستعيذ باللّه منه.

إنِّي أتعهد لك بأنَّك لو قمت بذلك السلوك، وكرَّرته عدّة مرات، فإنَّ الخُلُق السيّء سيتغير كليًّا، وسيحلّ الخُلُق الحسن في عالمك الباطن.

ولكنَّك إذا عملت وفق هوى النفس، فمن الممكن أن يبيدك في هذا العالم نفسه. وأعوذ باللّه تعالى من الغضب الذي يهلك الإنسان في آنٍ واحد في كلا

الدارين، فقد يؤدّي ذلك الغضب لا سمح اللّه إلى قتل النفس. ومن الممكن أن يتجرَّأ الإنسان في حالة الغضب على النواميس الإلهيّة. كما رأينا أنَّ بعض الناس قد أصبحوا من جرَّاء الغضب مرتدِّين، وقد قال الحكماء: «**إنَّ السفينة التي تتعرض لأمواج البحر العاتية وهي بدون قبطان، لهي أقرب إلى النجاة من الإنسان وهو في حالة الغضب**».

الإمام الخميني قدس سره «**الأربعون حديثاً**»

المرحلة الأولى
تهذيب النفس











الدرس الثالث

أمراض القلوب



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى وسائل تهذيب النفس.

٢. أن يكتشف أسباب الإعراض عن تهذيب النفس.

٣. أن يتعرّف إلى طريقة معرفة أمراض القلب.

٤. أن يحصّل دواعي التصميم على معالجة أمراض النفس.





تمهيد

بعد أن أدركنا أنَّ تهذيب النفس أمر أساسي في عمليَّة التزكية، وأنَّه يمثِّل المرحلة الأولى من مراحل تزكية النفس، نشير إلى أنَّه في مرحلة التهذيب يجب علينا القيام بثلاثة أمور:

أ - تهذيب النفس من العقائد الباطلة والأفكار الفاسدة والخرافات.

ب - تهذيب النفس من الرذائل والأخلاق السيّئة.

ج - ترك المعاصي والذنوب التي أرشدنا الشارع المقدَّس إلى مفاسدها ونتائجها الوخيمة.

مشكلة وحلّ

ومع أنَّنا ندرك بالفطرة مساوىء هذه الأمور التي يجب تطهير النفس منها، ومع أنَّ الأنبياء عليهم السلام عرَّفونا بها وبطرق علاجها، إلَّا أنَّنا غالباً ما لا نهتمّ بهذا الجانب، ولا نرى أنفسنا أسيرة للشيطان وللنفس الأمَّارء بالسوء!

أسباب المشكلة:

يتوقف علاج المشكلة - كما في كلّ مشكلة - على معرفة أسبابها، وتعود هذه

المشكلة إلى سببين رئيسيَّين.

الأوّل: عـدم علمنا بأنَّنا مرضى، لجهلنا بأمراضنا الأخلاقيّة، كمن يعلم بأنَّ هناك مرضاً ولا يعلم بأنَّه مريض به.

الثاني: استصغارنا للأمراض والذنوب والرذائل الأخلاقيّة.

هـذان الأمران هما السبـب في غفلتنا عن نسبة الأمراض هـذه إلى أنفسنا، فنحـن ندرك جيّداً الأمراض في الآخريـن، ولكنَّنا لا نلتفت إلى الأمراض الموجودة فينا، ولهذا لا نتحرّك في الغالب لإصلاح أنفسنا وتهذيبها.

حلّ المشكلة:

الأوّل: بالتعرّف على أمراضنا الأخلاقيّة والنفسيّة.

الثاني: بالتصميم على علاجها.

الأوّل: طرق الكشف عن أمراض القلب

لمعرفة أمراض القلب ينبغي الاستفادة من بعض الطرائق التي تساهم في الكشف عن هذه الأمراض، وهي:

١- **العقـل:** وهو ما يميّـز الإنسان عن الجماد والحيـوان، وهو منشأ التفكير والإدراك، وله موقع مميَّز في النصوص الإسلاميّة .

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**لمَّا خلق الله العقل استنطقه ثمَّ قال له: أقبِل. فأقبَل، ثمَّ قال: أدبِر، فأدبَر، ثمَّ قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبَّ**

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٠.

إليَّ منك، ولا أكملتك إلّا فيمن أحبّ، أما وإنّي إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أعاقب، وإيّاك أثيب»[1].

والعقل ضروريّ لمهمتين أساسيّتين:

أ- للتعـرّف على الله وصفاته وأنبيائه: فنطيعهم، وعلى الميعاد فنتجهّز له، وبه نتعرّف على محاسن الأخلاق ومساوئها.

وبذلك يتّضح أنَّ للعقل دوراً مهمّاً في إيصال الإنسان إلى كماله، وذلك فيما لو استطاع أن يسيطر على الغرائز من خلال كبح جماحها.

ب- للتفكّر: بعواقب الأمور ونتائجها الحسنـة أو السيّئة دنيويّاً وأخرويّاً قبل القيام بها، وقد جاءت الأحاديث لتؤكّد ذلك، فقد روي أنَّ رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أوصني، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «**فهل أنت مستوص إن أوصيتـك؟**» حتـى قال ذلك ثلاثاً في كلّها يقـول الرجل نعم يا رسول الله، فقال لـه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فإنّـي أُوصيك إذا هممت بأمـر فتدبَّر عاقبته، فإن يكُ رشداً فامضه، وإن يكُ غيّاً فانته عنه**»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّما أهلك الناس العجلة، ولو أنَّ الناس تثبّتوا لم يهلك أحد**»[3].

٢- التأمّل بالنفس: فإنَّ الإنسان إذا تأمّل في نفسه سوف يعرف ما فيها من أمراض وعيوب.

قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[4].

وإذا حكمنا على أنفسنا فغالباً ما ننحاز لصالحها، لأنّنا ننظر إليها دون

---

(١) الكليني، الكافي، ج١، ص١٠.

(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٣٩.

(٣) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٢٧-ص١٦٩.

(٤) سورة القيامة، الآية: ١٤ – ١٥.

عيوب ونواقص في الأقوال والأفعال، إنَّها النفس الأمَّارة بالسوء التي تزيِّن القبيح حسناً وتدعونا لحسن الظنِّ بها.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].

وأحسن طريق عندئذٍ لإصلاح النفس هو ألَّا نحسن الظنَّ بأنفسنا، بل ينبغي أن نتّهمها ونسيء الظنَّ بها، لكي نتكشَّف عيوبها ونسعى في إصلاحها.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**إنَّ المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلَّا ونفسه ظنون عنده فلا يزال زارياً[2] عليها ومستزيداً لها**»[3].

٣ - **مراجعة الطبيب الروحيّ:** فإنَّ من أهمِّ الأمور التي تساعد على معرفة عيوب النفس وأمراضها، مراجعة العالم بالأخلاق الإسلاميّة، فيستطيع الإنسان مراجعة عالم صالح خلوق استطاع تهذيب نفسه من أجل أن يساعده في اكتشاف عيوب نفسه.

٤ - **مصاحبة الصديق العالم المحبّ للخير:** فإنَّ الصديق إذا كان عالماً، يميّز بين الصفات الحسنة والصفات السيّئة، وكان ناصحاً ومحبّاً للخير فيمكن الاستعانة به من أجل معرفة عيوبنا، فإنَّ المؤمن يستطيع أن يساعد أخاه المؤمن ليرى نفسه فيه، إذا كان ناصحاً مشفقاً حريصاً على سمعة أخيه وحرمته.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**أحبُّ إخواني إليَّ مَنْ أهدى إليَّ عيوبي**»[4].

٥ - **أخذ العبرة من عيوب الآخرين:** وهذه إحدى الوسائل لمعرفة العيوب

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٢) زارياً أي عائباً لنفسه.
(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٧٦
(٤) الحرّاني،تحف العقول، ص ٣٨٥.

النفسيّـة، وطالما رأى الإنسان النقطة الصغيـرة من عيوب الآخرين، ولا يـرى القبائح الكبيرة من نفسـه، والعاقل إذا رأى عيباً في الآخرين يدرك قبحـه، ويعتبـر مـن ذلك، فيرجـع إلى نفسه فـإن وجد فيهـا ذاك العيب أصلحه.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**السعيد من وعُظ بغيره**»[1].

٦ - الاستفادة من النقد: فيمكن للإنسان أن يستمع إلى نقد الآخرين، فيرجع إلـى نفسه، فإن صحّ النقـد أصلحها وشكر نقدهم، وإن لم يصحّ، يكن قد علم خلوَّها من العيب فيشكر ربَّه على ذلك.

٧ - التعـرُّف علـى علامـات العيـوب: فـإنَّ بعض الأمراض البدنيّة تعرف بعلامـات تظهر فـي أعضاء البدن، فـإنَّ ضعف أداء وظيفـة العضو مثلاً علامـة على مرضه، وكذلك النفس وميولاتهـا الفطريَّة. فالإنسان مفطور علـى التوجّه إلى اللّه سبحانه وحبّه وعشقه وشكره وعبادته وطاعته، فإذا رأينـا ضعف ذلك في أنفسنا فإنَّ هذا علامة على مرض قلوبنا، واذا رأى الإنسـان أنَّه يتحاشى قراءة القـرآن والدعاء والتوسّـل إلى اللّه سبحانه، أو أنَّـه يحـبُّ الدنيـا والمال والجـاه، ولا يرى فـي خدمة النـاس لذّة، ولا يتأثـر بمعاناة المظلوميـن، ولا ينفعل لآلامهم وحاجاتهـم، فإنَّ هذا يعني أنَّ صفاتـه الحيوانيّة أقوى من صفاته الإنسانيّـة، وهذا من أكبر عوارض مرض النفس.

الثاني: التصميم على العلاج

لا بدّ من التصميم على العلاج، فبعد معرفة العيوب والأمراض ينبغي أن لا نستصغرها، وأن نبادر بعزم على علاجها، فنحذر مكر الشيطان الذي يحاول

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٢٤.

بشتّى الوسائل أن يثنينا عن القيام بمهمَّتنا، فقد يوحي لنا الشيطان بأنَّ هذا العيب موجود في الآخرين، حتى يقلِّل لنا من أهميَّته، في حين أنَّ مرض الآخرين لا يبرّر أن أكون مريضاً مثلهم، بل قد يسوّل لنا الشيطان بأنَّ السوء الفلانيّ هو ممّا اعتدنا عليه، أو أنَّ اللّه سوف يغفره، في حين أنَّ العادة قابلة للتغيير والتبديل، ففي مثل هذه الحالات علينا أن لا نأبه لأيّ وسوسة شيطانيّة، بل لا بدَّ من المبادرة فوراً لعلاج العيوب، والسعي بعزم أكيد لتهذيب نفوسنا، وإذا ما سارع الإنسان إلى العلاج وأصرَّ على التغلّب على النفس الأمَّارة بالسوء، وذلك بإخضاعها لإرادة العقل والشرع معاً، اللذين يأخذان بيد الغرائز الحيوانيّة نحو الاعتدال والتوازن، فعندئذٍ تأمن حياة الإنسان دنيا وآخرة، وتعمر بالسعادة الكاملة الحقيقيّة.

أمَّا كيف نهذّب نفوسنا ونطهِّرها من الأخلاق السيّئة والمعاصي والذنوب؟ وما هي الوسائل المساعِدة على ذلك؟ فهذا ما سنبيِّنه في الدروس القادمة إن شاء اللّه.

خلاصة الدرس

١ - تهذيب النفس يكون من أمور ثلاثة:

أ - من العقائد الباطلة.

ب - من الأخلاق السيّئة.

ج - من الذنوب والمعاصي.

٢ - مـن الأسباب التي تحول دون تهذيب نفوسنا، جهلنا بأمراضنا. ولذلك لا بدّ من الالتفات إلى أمراضنا كمقدّمة لعلاجها.

٣- طرق علاج الأمراض القلبيّة بأمرين:

أ - معرفة الأمراض كمقدّمة للعلاج عبر طرق عديدة منها:

العقل، والتفكّر بعاقبة الأمور، وسوء الظنّ بالنفس، مراجعة الأطبّاء الروحيّين، ومصاحبة الصديق العالِم، وأخذ العبرة من الآخرين، والاستفادة من النقد، ومعرفة عوارض المرض.

ب - إنَّ الشيطان، والنفس الأمَّارة بالسوء، لن يتركانا وعملنا، فعلينا الاستعداد لمواجهتهم بالتصميم على تهذيب نفوسنا.



للمطالعة

وعد بالجنّة

يقول أبو بصير أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: كان أحد أعوان وعمّال السلاطين جاراً لي، كانت كلّ أمواله من الحرام، ومنزله مركز فساد ولهو ولعب ورقص وغناء، كنت أتأذّى من جيرته، نصحته مراراً دون فائدة، ذات يوم أصرَّيت عليه كثيراً فقال: لقد أصبحت أسيراً للشيطان، اعتدت على اللهو والمعصية ولا أستطيع تركها، مريض ولكنّي لا أستطيع معالجة نفسي. أنت جار جيّد ولكنّي لك جار سيّء، ماذا أفعل، أنا أسير الهوى ولا أستطيع أن أجد طريقاً للنجاة، إذا زرت الإمام الصادق عليه السلام أخبره بحالي لعلّه يرشدني إلى طريق النجاة، يقول أبو بصير: تأثّرت لكلامه، صبرت برهة حتّى قصدت الإمام الصادق عليه السلام في المدينة، عندما تشرفت بلقائه ذكرت له القصّة، فقال له الإمام عليه السلام: إذا ما رجعت إلى الكوفة قل له: يقول لك جعفر بن محمّد: «**أخرج ممّا أنت فيه وأنا أضمن لك الجنّة**». يقول أبو بصير: بعد أن انتهيت من كلّ أعمالي رجعت إلى الكوفة. كان الناس يأتون لزيارتي إلى أن جاءني الرجل زائراً، بعد سؤاله عن أحوالي اعتذر هامّاً بالإنصراف، أشرت له بالبقاء لوجود أمر أريد التحدّث بشأنه، عندما فرغ المنزل من الزائرين قلت له: ذكرت قصّتك للإمام الصادق عليه السلام، فطلب منّي إيصال سلامه إليك وأن أبلّغك بعبارته: «**اخرج ممّا أنت فيه وأنا أضمن لك الجنّة**».

دخل كلام الإمام عليه السلام إلى قلبه فبدأ بالبكاء، ثمَّ أقسم عليَّ للتأكّد من صحّة الحديث فأقسمت. قال: هذا كافٍ ثمَّ خرج ولم أسمع عنه شيئاً لأيّام خلت.

بعدها أرسل خلفي، فذهبت إليه وطرقت الباب فأجابني من خلف الباب: يا

أبا بصير أعدت كلّ الأموال الحرام لأصحابها، وحتى الألبسة التي كانت لدي وأنا الآن عارٍ، يا أبا بصير لقد عملت بحسب أمر الإمام الصادق وتركت كلّ المعاصي، يقول أبو بصير: تأثّرت لكلامه وتوبته وتعجّبت لمدى تأثير كلام الإمام فيه، عدت إلى منزلي وجهّزت له شيئاً من الطعام وبعض اللباس وأخذتها له. بعد مدّة أرسل خلفي فذهبت، لأجده مريضاً عليلاً، بقيت أعوده مدّة من الزمن، لم ينفع العلاج معه في شيء، حتى اشتدّ المرض عليه وبدأت علامات الاحتضار واضحة عليه. جلست بِقُرْبِهِ وكان غائباً عن الوعي، وفجأةً فتح عينيه وقال: يا أبا بصير لقد وفى الإمام الصادق عليه السلام بوعده. قال هذا وفارق الدنيا. بعد مدّة وفّقت للحجّ وزرت الإمام الصادق عليه السلام، مجرَّد أن وطأت عتبة داره ناداني سلام اللّه عليه وقال: «**يا أبا بصير لقد وفيت وعدي لجارك وأعطيته الجنّة التي وعدت**».

منتهى الآمال، ج٢،ص٨٦





الدرس الرابع

كيف نهذِّب أنفسنا ؟



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى أفضل طرق تهذيب النفس.

٢. أن يتعرّف إلى الوسائل المساعدة على تهذيب النفس.

٣. أن يتبيّن مانعين: أصدقاء السوء، وضعف الإرادة.



تمهيد

وصلنا في الدرس السابق إلى معرفة الطرق التي تُعرّفنا على أمراض نفوسنا، وأكّدنا على ضرورة علاجها، وبيّنا أنّ هذا العمل سيقودنا إلى تهذيب نفوسنا، وتطهيرها من الأمراض التي تصيبها.

أمّا في هذا الدرس فسوف نتعرّف على طرق تهذيب النفس، والأمور التي تساعدنا على القيام بذلك.

١- طرق تهذيب النفس

إذا أراد الإنسان أن يهذّب نفسه، فلا بدَّ من أن يلتفت إلى الطرق التي يمكن استخدامها للقيام بهذا الأمر، وهذه الطرق هي:

أ - الوقاية: وهي بمعنى التوقّي من أوّل الأمر بالحيطة والحذر، وتجنّب ما يؤدّي إلى الوقوع في المعاصي والأخلاق السيّئة، وهي أفضل وأسهل وسيلة لتهذيب النفس، لأنَّ النفس قبل إصابتها وتلوّثها تكون أكثر استعداداً للتخلّق بأخلاق الله وعمل الخير، وتكون أقدر على مواجهة إغراء الدنيا ووسوسة الشيطان، ولذا فإنَّ ترك المعاصي أيسر من الحصول على التوبة.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة، وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً**»[1].

ولذلك فإنَّ عمر الشباب هو عمر مناسب جدّاً لهذا الأمر، حيث ينبغي ألّا يكون قد حصل التلوّث بحبِّ الدنيا في هذا العمر.

ب - الترك المباشر: لو فرضنا أنَّ الوقاية لم تنجح بشكل كامل، وابتلى الإنسان بالمعاصي وسوء الخلق، فإنَّ أفضل وسيلة لعلاج ذلك هو الترك المباشر والدفعيّ للمعاصي، والتوبة مباشرة بتصميم قاطع، وإرادة قويّة، والتغلّب على الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء دفعة واحدة، وربما يحصل هذا الأمر نتيجة سماع آية أو حصول حادثة أو غير ذلك، ويمكن أن نلحظ هنا ذلك التحوّل الكبير والسريع الذي حصل في حياة بشر الحافي، ولم يكن هذا التحوّل إلّا نتيجة كلمة قالها الإمام الكاظم عليه السلام وهي: «.. **لو كان (بشر) عبداً لخاف من مولاه**».

وبالترك المباشر والدفعيّ للسيّئات، نقطع الطريق على إبليس وأعوانه، ونتخلّص من هذه الأمراض كما تخلَّص منها بشر الحافي.

ج - الترك التدريجيّ: إذا لم نستطع تهذيب أنفسنا دفعة واحدة، فيمكن أن نقوم بذلك بشكل تدريجيّ، بأن نقوم بترك ذنب أو مجموعة ذنوب، وبذلك نكون قد بدَّلنا نقطة سوداء في قلوبنا إلى نقطة بيضاء، ومن ثمَّ نقوم بترك ذنب آخر، وهكذا إلى أن نكون بعد فترة قد ابتعدنا تماماً عن الذنوب، وأخرجنا الصفات السيّئة من أنفسنا، وسدّدنا ضربة موجعة للشيطان، تضعفه عن محاولة إضلالنا وإسقاطنا في وادي الهلاك.

(١) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤٥١.

٢- الأمور المساعدة على تهذيب النفس

وأمَّا الأمور التي يمكن لها أن تساعدنا على تهذيبنا لأنفسنا، فهي:

أ - **التفكّر**: إنَّ الإنسان إذا انشغل بأموره الدنيويّة، وغفل عن الآخرة وآثار أعماله فيها، فإنَّه لن يندفع لتهذيب نفسه، وهنا ما الحلّ؟

الحلّ في التفكّر، التفكّر في العاقبة، وفي نتائج أعماله في الآخرة، وفيما سيحصل له في عالم القبر ويوم القيامة. إنَّ هذا التفكّر سيلجم الإنسان عن ارتكاب ما يؤدّي إلى سوء العاقبة.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**من عمر قلبه بدوام الفكر حسنت أفعاله في السرّ والجهر**»[1].

ب - **التأديب والمجازاة**: يمكن للمرء أن يتوعّد نفسه بالعقاب فيما لو ارتكبت المعصية، فإن فعلت عاقبها بأحد هذه الأمور: إمَّا بالصوم يوماً، أو بدفع مبلغ ماليّ، أو بحرمان النفس من وجبة طعام، أو ممّا تشتهيه وهكذا.. وإن أقلعت يكون قد كبح جماحها، فلا يتهاون معها ولا ينساق مع العادات السيّئة التي تحكّمت بها.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**تولَّوْا من أنفسكم تأديبها واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها**»[2].

ويقول عليه السلام: «**نعم العون على أسر النفس وكسر عادتها الجوع**»[3].

ج - **الإلتفات إلى قيم الذات وتقوية القيم الإنسانيّة**: إنَّ نفس الإنسان جوهرة ثمَّينة، جاءت إلى الوجود من عالم الكمال والجمال، فإذا أدرك الإنسان

(١) غرر الحكم، ص ٣٥٣، حكمة ١٠٥٠.

(٢) م. ن، ص ١٧٨، حكمة ١٢٩.

(٣) م. ن، ص ٧٧٣.

ذلـك فإنَّه سوف ينأى بنفسه عن ارتـكاب ما لا ينسجم مع مقامه كخليفة للّه ومحـلٍّ لتكريمه، لأنَّ تلك النفس خلقت لتترفّع عـن الدنس والخطايا، ولترتقي في عالم القرب إلى اللّه، وهذا ما يدفع نحو تهذيب النفس، فعلى **السالك عندها أن يقوم بأمرين:**

الأول: أن لا يستجيب لتلك الصفة السيّئة في نفسه.

الثانـي: أن يعمل علـى تقوية تلك الصفة الحسنـة المقابلة لها، ويفرض على نفســه العمـل بهـا حتّى يعتـاد عليهـا تدريجيّاً، لتتحـوّل إلى ملكـة وصفة راسخـة في نفسه، وفـي ذلك يقول الإمـام عليّ عليه السلام «**عـوّد نفسك فعل المـكارم، وتحمَّـل أعباء المغارم، تشـرف نفسك، وتعمـر آخرتك، ويكثر حامدوك**»[1].

٣- موانع تهذيب النفس

كما ينبغي على الإنسان أن يهتمّ بطرق التهذيب، عليه أيضاً أن يزيل الموانع التي تحول دون تهذيب نفسه، وذلك بالكفّ عن أمرين:

أ- **معاشـرة أهـل السوء:** إنَّ الإنسان يتأثّـر بأقرانه، سواءً من حيث يشعر أم لا يشعـر، فإن كان لا بدّ من صحبة فيجب أن يكون الأصحاب من الأخيار، الذين يُقرِّبُون من الجنَّة ويُبعِّدون عن النار، من هنا أكَّدت الروايات كثيراً علـى اتّخـاذ الأصحاب من المؤمنيـن الصالحين، وضـرورة الابتعاد عن قُرنَـاء السوء، لما لذلك من أثر طيّب علـى المرء في أخلاقه وأعماله، بل وفـي دينه، يقول الإمـام عليّ عليه السلام: «**احـذر مجالسة قرين السـوء فإنّه يهلك مقارنه ويردي مصاحبه**»[2].

(١) م. س، الغرر، صفحة ٢٦١، حكمة ٢٦١.
(٢) م. ن، ص ٩١، حكمة ١٩.

ب - الموارد التي يحتمل أن يضعف فيها: بما أنَّ الإنسان يتأثّر بالأمور التي تحيط به، فإنَّه من الممكن أن يضعف في بعض المواطن، أو الحالات التي تتهيّأ فيها أجواء المعصية، كمجالس الفسق والفجور ومراكز السوء، والخلوة بالمرأة الأجنبيّة والمزاح معها، والنظر إلى المشاهد المثيرة للغرائز والشهوات، من هنا كان عليه أن يبتعد عن تلك الموارد التي يقوى فيها الشيطان عليه، حتّى لا يقع في المعصية، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**إذا أبصرت العينُ الشهوة، عمي القلب عن العاقبة**»[1].

إنَّ الإنسان الذي يهتمّ بتهذيب نفسه لا بدّ أن يقدم على كلّ ما من شأنه أن يوصله إلى هدفه السامي، لكي يحثّ السير ويسرع في الوصول قبل فوات الأوان.

ج - حبّ الدنيا: والمراد بها حبّ الدنيا المذمومة بالنظرة الإسلاميّة ويأتي الحديث عن هذا الأمر لأهميّته في درس مستقلّ.

خلاصة الدرس

١ - إنَّ الوقاية من الذنوب والأخلاق السيّئة هي من أهمّ طرق تهذيب النفس.

٢- الإقلاع عن المعاصي دفعة واحدة يعدّ من أساليب تهذيب النفس، ويكون بعد التلوّث بالذنوب ويحتاج إلى همّة عالية.

٣- الإقلاع عن المعاصي تدريجيّاً يكون مطلوباً إذا لم ننجح في الابتعاد عنها دفعة واحدة.

٤- ممّا يساعد على تهذيب النفس: التفكّر، تأديب النفس، إدراك الإنسان لكرامته ومكانته عند الله.

٥- على الإنسان أن يجتنب موانع تهذيب النفس وهي عبارة عن معاشرة قرين السوء، والموارد التي يحتمل أن تضعف فيها النفس امام المعصية.

(١) م. س، الغرر، ص ١٥٥، حكمة ٤.



للمطالعة

قصّة بشر الحافي

في عصر الإمام الكاظم عليه السلام كان يعيش في بغداد رجل معروف يقال له بشر. وكان ممّن يشار إليه بالبنان، وحدث يوماً أن كان الإمام الكاظم عليه السلام مارّاً من أمام بيت بشر، وكانت أصوات اللهو والطربّ تملأ المكان، فصادف أن فتحت جارية باب الدار لإلقاء بعض الفضلات، وحين رمت بها في الطريق سألها الإمام عليه السلام قائلاً: «**يا جارية! هل صاحب هذه الدار حرّ أم عبد**»؟!

فأجابته الجارية وهي مستغربة سؤاله هذا، وبشر رجل معروف بين الناس، وقالت: بل هو حرّ!! فقال الإمام عليه السلام: «**صدقت، لو كان عبداً لخاف من مولاه**».

الإمام عليه السلام قال هذه الكلمة وانصرف. فعادت الجارية إلى الدار وكان بشر جالساً إلى مائدة الخمر، فسألها: ما الذي أبطأك؟ فنقلت له ما دار بينها وبين الإمام عليه السلام، وعندما سمع ما نقلته من قول الإمام عليه السلام: «**صدقت، لو كان عبداً لخاف من مولاه**» اهتزَّ هزَّاً عنيفاً أيقظه من غفلته، وأيقظه من نومته، نومة الغفلة عن الله. ثمَّ سأل بشر الجارية عن الوجهة التي توجّه إليها الإمام، فأخبرته، فانطلق يعدو خلفه، حتّى أنَّه نسي أن ينتعل حذاءه. وكان في الطريق يحدّث نفسه بأنّ هذا الرجل هو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وفعلاً ذهب إلى منزل الإمام فتاب على يده، واعتذر وبكى، ثمَّ هوى على يدي الإمام يقبلها وهو يقول: سيّدي أريد من هذه الساعة أن أصبح عبداً ولكن عبداً لله، لا أريد هذه الحريّة المذلّة التي تأسر الإنسانيّة فِيَّ، وتطلق العنان للشهوة الحيوانيّة. لا أريد حريّة السعي وراء الجاه والمنصب، لا أريد حريّة الخوض في مستنقع الذنوب

وأغدو أسيراً لها، لا أريد أن تؤسر فِيَّ الفطرة السليمة والعقل السليم. من هذه الساعة أريد أن أصبح عبداً لله ولله وحده، حُرًّا تجاه غيره.

وتاب بشر على يد الإمام الكاظم عليه السلام، ومنذ تلك اللحظة هجر الذنوب ونأى عنها وأتلف كلّ وسائل الحرام، وأقبل على الطاعة والعبادة. بشر هذا هو مهاجر أيضاً لأنّ «**المهاجر من هجر السيّئات**».

العلامة الحلي، مفتاح الكرامة، ص٥٩ (بتصرّف)





الدرس الخامس

إزالة حبّ الدنيا



أهداف الدرس

١. أن يميّز الطالب درجات الحبّ الذي يستقطب القلب.

٢. أن يعدّد درجات حبّ الدنيا.

٣. أن يميّز الدنيا الممدوحة من الدنيا المذمومة.

٤. أن يحدّد دور الإنسان في هذه الدنيا.







تمهيد[١]:

إنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يجمع في قلب واحد ولاءين، ولا يجمع حبّين مستقطِبين؛ فإمّا حبُّ اللّه، وإما حبّ الدنيا. أمّا حبًّ اللّه وحبّ الدنيا معاً فلا يجتمعان في قلب واحد، فلنمتحن قلوبنا، لنرى، هل تعيش حبَّ اللّه سبحانه وتعالى، أو تعيش حبَّ الدنيا، فإن كانت تعيش حبَّ اللّه؛ زدنا ذلك تعميقاً وترسيخاً، وإن كانت – نعوذ باللّه – تعيش حبَّ الدنيا، فلنحاول أن نتخلّص من هذا الداء الوبيل، ومن هذا المرض المهلك.

١ – درجات وصيغ الحبّ

إنّ كلّ حبّ يستقطِب قلب الإنسان يتّخذ إحدى درجتين:

الدرجة الأولى:

أن يشكّل هذا الحبّ محوراً وقاعدةً؛ لمشاعر وعواطف وآمال وطموحات هذا الإنسان، قد ينصرف عنه في قضاء حاجة، في حدودٍ خاصّة، ولكن سرعان ما يعود إلى القاعدة، لأنّها هي المركز، وهي المحور، فقد ينشغل بحديثٍ، وقد

(١) قمنا باقتطاع بعض فقرات هذا الدرس من كلمات للشهيد السعيد السيّد محمد باقر الصدر (رضوان اللّه عليه) من محاضرته المعروفة بحبّ الدنيا.

ينشغل بكلام، وقد ينشغل بعملٍ، أو طعامٍ، أو شرابٍ، أو بعلاقاتٍ ثانويّة، أو بصداقاتٍ، لكن يبقى ذاك الحبّ هو المحور.

الدرجة الثانية:

أن يستقطب هذا الحبّ كلّ وجدان الإنسان، بحيث لا يشغله شيء عنه على الإطلاق، فيرى محبوبه، وقِبلته، وكعبته، أينما توجّه، فأينما توجّه سوف يرى ذلك المحبوب.

٢ - درجات حبّ اللّه

هذا التقسيم الثنائيّ ينطبق على حبّ اللّه، وينطبق على حبّ الدنيا أيضاً، حبّ اللّه سبحانه وتعالى، فالحبّ المحور الشريف للّه يتّخذ هاتين الدرجتين.

أ - حبّ المؤمنين

الدرجة الأولى: يتّخذها في نفوس المؤمنين الصالحين الطاهرين، الذين نظّفوا نفوسهم من أوساخ هذه الدنيا الدنيّة، هؤلاء يجعلون من حبّ اللّه محوراً لكلّ عواطفهم ومشاعرهم وطموحاتهم وآمالهم، قد ينشغلون بوجبة طعام، بمتعةٍ من المتع المُباحة، بلقاءٍ مع صديق، بتنزّه في شارع، ولكن يبقى هذا هو المحور الذي يرجعون إليه بمجرّد أن ينتهي هذا الانشغال الطارئ.

ب - حبّ الأولياء

الدرجة الثانية: هي الدرجة التي يصل إليها أولياء اللّه من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي قال: «**ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت اللّه معه وقبله وبعده وفيه**»، لأنّ حبّ اللّه في هذا القلب العظيم، استقطب وجدانه إلى الدرجة التي منعه من أن يرى شيئاً آخر غير اللّه، حتّى حينما كان يرى

الناس، كان يرى فيهم عبيد اللّه، حتّى حينما كان يرى النعمة الموفورة، كان يرى فيها نعمة اللّه سبحانه وتعالى، كان يتجسّد هذا الربط باللّه دائماً وأبداً أمام عينه؛ لأنّ محبوبه الأوحد، ومعشوقة الأكمل، وقبلة آماله وطموحاته، لم يسمح له بشريكٍ في النظر، فلم يكن يرى إلّا اللّه سبحانه وتعالى.

٣ – درجات حبّ الدنيا

نفس التقسيم الثنائيّ يأتي في حبّ الدنيا أيضاً، الذي هو رأس كلّ خطيئة، فحبُّ الدنيا يتّخذ درجتين:

الدرجة الأولى

أن يكون حبُّ الدنيا محوراً للإنسان، وقاعدةً له في تصرّفاته وسلوكه يتحرّك حينما تكون المصلحة الشخصيّة في أن يتحرّك، ويسكن حينما تكون المصلحة الشخصيّة في أن يسكن، يتعبّد حينما تكون المصلحة الشخصيّة في أن يتعبّد، وهكذا، الدنيا تكون هي القاعدة، لكن أحياناً أيضاً يمكن أن يفلت من الدنيا، فيشتغل أشغالاً أخرى نظيفةً وطاهرة، فقد يصلّي للّه سبحانه، وتعالى، وقد يصوم للّه سبحانه وتعالى، لكن سرعان ما يرجع مرّة أخرى إلى ذلك المحور، وينشدّ إليه، فهي فلتات، يخرج بها من إطار ذلك الشيطان، ثمّ يرجع إليه مرّة أخرى.

الدرجة الثانية

وهي الدرجة المهلكة، حيث يعمي حبُّ الدنيا هذا الإنسان، يسدّ عليه كلّ منافذ الرؤية، يكون بالنسبة إلى الدنيا كما كان سيّد الموحّدين، وأمير المؤمنين بالنسبة إلى اللّه سبحانه وتعالى، إنّه لم يكن يرى شيئاً إلّا وكان يرى اللّه معه وقبله وبعده، حبّ الدنيا في الدرجة الثانية يصل إلى مستوى بحيث إنّ الإنسان لا يرى شيئاً إلّا ويرى الدنيا فيها وقبلها وبعدها ومعها، حتّى الأعمال الصالحة

تتحوّل عنده وبمنظاره إلى دنيا، وتتحوّل عنده إلى متعة، وإلى مصلحة شخصيّة، حتّى الصلاة، وحتّى الصيام، والبحث والدرس، كلّها تتحوّل إلى دنيا، ولا يرى شيئاً إلّا من خلال الدنيا، إلّا من خلال مقدار ما يمكن لهذا العمل أن يعطيه، من حفنةِ مال، أو من كومة جاه، لا يستمرّ معه إلّا بضعة أيّام معدودة.

الدرجة الثانية أشدّ هلكة

وكلٌّ من الدرجتين مهلكة، والدرجة الثانية أشدّ هلكةً من الدرجة الأولى؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حبُّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة**»، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله**»[1]، لا تقل: لآخذ هذه الحفنة من الدنيا، ثمّ انصرف عنها، لأحصل على هذه المرتبة من جاه الدنيا ثمّ انصرف إلى الله، ليس الأمر كذلك، فإنّ أيّ مقدارٍ تحصل عليه من مال الدنيا، أو من جاه الدنيا، أو من مقامات هذه الدنيا الزائلة، سوف يزداد بك العطش والنهم إلى المرتبة الأخرى.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همّه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه وشتّت أمره ..**»[2]. هذا الكلام يعني قطع الصلة مع الله، فإنّ ولاءين وحبّين لا يجتمعان في قلبٍ واحد، ومن كان ولاؤه للدنيا فليس له من الله شيء وسيتركه الله ويشتت أمره، لأنّ حبّ الدنيا يُفرغ الصلاة من معناها، ويُفرغ الصيام من معناه، ويُفرغ كلّ عبادةٍ من معناها، ولا يبقى أيّ معنى لهذه العبادات، وذلك إذا استولى حبّ الدنيا على قلب الإنسان. فحب الدنيا رأس كلّ خطيئة ومُنطلق البعد عن الله سبحانه.

ما هي الدنيا المذمومة؟

هنا يجب أن نعرف أيّة دنيا هي الدنيا التي ذمَّتها الروايات، لأنَّ الإنسان

(١) الكافي، الكليني، ج٢، ص١٣٦.
(٢) م.ن. ج٢، ص٣١٩.

هو ابن هذه الدنيا، وهو يحيا فيها ويأكل ويتناسل فيها.. وقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال**»[1].

فهل المذموم هو ما نراه أمَّامنا من المأكل والملبس والمسكن... أم هو شيء آخر؟

الذي يستفاد من القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام أنَّ المذموم من الدنيا، هو الاستغراق فيها والتعلّق بها، بحيث تصبح عائقاً أمام حركة الإنسان نحو اللّه، وهو ما عبَّرت عنه الروايات بـ «**حبّ الدنيا**»، الذي لا يعني مجرَّد الاستفادة من الأمور الدنيويّة، بل أن يرتبط القلب بهذه الأمور وتصبح له عُلْقَة شديدة بها، وقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام: «**إيّاك وحبّ الدنيا فإنَّها أصل كلّ خطيئة ومعدن كلّ بلية**»[2].

الدنيا ممرّ للآخرة

من المناسب هنا أن نبحث في حقيقة الدنيا، وهو ما يساعد على توضيح المطلب السابق.

يعتقد الإسلام بوجود عالَمَين: عالَم الدنيا، وهو الذي نحيا فيه، وعالَمُ الآخرة، وهو الذي نصير إليه، وعالَم الدنيا ليس إلَّا مجرَّد ممرّ للآخرة؛ إنَّها المكان الذي نبني فيه آخرتنا، ونحدّد فيه مصيرنا في الآخرة، ولهذا من يدرك حقيقة الدنيا هذه فإنَّه لن يركن إليها، بل سيعمل للتزوّد منها إلى دار البقاء، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**فإنَّ الدنيا لم تُخْلَق لَكُمْ دارَ مُقام، بَلْ خُلِقَتْ لَكُم مَجَازاً لِتُزَوَّدُوا منها الأعمَالَ إلى دارِ القَرارِ..**»[3].

---

(١) م. س، الكافي، ج ٥، ص ٧٨.

(٢) غرر الحكم، ص ٩٥، ح ٤٧.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٣٢.

نتيجة الرؤية الإسلاميّة للدنيا

إنَّ لهذه الرؤية نتائج عديدة على المستوى العمليّ، وعلى مستوى تزكية النفس، نجملها بأنَّ من يحمل هذه الرؤية، فإنَّه سيسعى جاهداً لإقامة علاقة متوازنة بين أمرين:

أ- **من خلال الاستفادة من الدنيا للآخرة:** وذلك عبر الاستفادة من جميع الفرص المتاحة له فيها، لزيادة أجره وثوابه في الآخرة، لأنَّها الهدف ودار القرار.

فعن ابن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «**إنّا لنحبّ الدنيا، فقال لي: تصنع بها ماذا؟ قلت: أتزوج منها وأحجّ وأنفق على عيالي وأنيل إخواني وأتصدق، قال** عليه السلام: «**ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة**»[1].

ب- **التمتع بنعم الدنيا:** يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

إنّ الرؤية القرآنيّة للدنيا تبصّر المؤمن بأنّ الدنيا طريق للعبور إلى الآخرة، فلا بأس بالتمتع ببعض رزق الله في الدنيا شرط أن لا تُنس الآخرة، وأن يكون المرجوّ في كل عمل رضوان الله تعالى.

أهل الدنيا وأهل الآخرة

إنَّ الرؤية السابقة تسهم في التمييز بين فئتين:

أهل الدنيا، وهم الذين جعلوا الدنيا هدفاً، ورضوا بها، وأصبحوا عبيداً لها،

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٦٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

يقول تعالى في وصفهم وبيان مآلهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[١].

إنَّ أهل الدنيا قلوبهم متعلّقة بالدنيا منجذبة إليها، وهذه القلوب لن تكون محلّاً لنور اللّه تعالى، يقول الإمام عليّ عليه السلام «**حرام على كلّ قلب متولّه بالدنيا أن يسكنه التقوى**»[٢].

أهل الآخرة، وهم الذين جعلوا الآخرة هدفاً، وعملوا لها، ولم ينظروا للدنيا إلّا كجسر يعبر بهم إلى دار الآخرة. يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**الناس في الدنيا عاملان: عامل عمل في الدنيا للدنيا، قد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على من يَخْلُفُهُ الفقر ويأمنه على نفسه، فيفني عُمُرَهُ في منفعة غيره، وعامل عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل، فأحرز الحظّين معاً وملك الزَّادَيْنِ جميعاً، فأصبح وجيهاً عند الله**»[٣].

(١) سورة يونس، الآيتان:٧-٨.

(٢) غرر الحكم، ص ١٩٢، ح ٣٢.

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٧١.



خلاصة الدرس

١-الحبّ الذي يستقطب قلب الإنسان على درجتين:

أ- الحبّ المحور، الذي يشكل القاعدة والأساس.

ب- الحـبّ الذي يستقطب كلّ وجدان الإنسان. وهاتان الدرجتان توجدان في حبّ اللّه وفي حبّ الدنيا.

٢ - من عَزَمَ على تهذيب نفسه عليه أن يزيل حبّ الدنيا من قلبه.

٣ - إنَّ المذمـوم مـن الدنيـا هـو حبّهـا بمعنـى التعلّـق بهـا والانجـذاب لمظاهرها.

٤ - حقيقـة الدنيـا أنَّهـا دار ممـرّ وأنَّها الـدار الذي نحدّد فيـه مصيرنا في الآخرة.

٥- أهـل الآخرة هم الذيـن عملوا في الدنيا للآخرة وأهـل الدنيا هم الذين عملوا في الدنيا للدنيا.



للمطالعة

قصّة عيسى والحواريين

ورد في أصول الكافي بسند صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «**مرَّ عيسى بن مريم عليه السلام على قرية قد مات أهلها وطيرها ودوابُّها، فقال: أمَّا إنَّهم لم يموتوا إلّا بسخطة (من الربِّ)، ولو ماتوا متفرّقين لتدافنوا.**

فقال الحواريّون: يا روح اللّه وكلمته، ادع اللّه أن يحييهم لنا، فيخبرونا ما كانت أعمالهم (حتّى كان هذا جزاءهم) فنتجنّبها.

فدعا عيسى عليه السلام ربَّه، فنودي من الجوّ: أن نادهم.

فقام عيسى عليه السلام بالليل على شَرَفٍ من الأرض فقال: يا أهل هذه القرية.

فأجابه منهم مجيب: لبّيك يا روح اللّه وكلمته.

فقال: ويحكم، ما كانت أعمالكم؟

قال: عبادة الطاغوت، وحبّ الدنيا، مع خوف قليل (من اللّه) وأمل بعيد، وغفلة في لهو ولعب.

فقال: كيف كان حبّكم للدنيا؟

قال: كحبّ الصبيّ لأمّه، إذا أقبلت علينا فرحنا وسررنا، وإذا أدبرت عنَّا بكينا وحزنَّا.

قال: كيف كانت عبادتكم للطاغوت؟ قال: الطاعة لأهل المعاصي. قال: كيف كان عاقبة أمركم؟

قال: بتنا ليلة في عافية، وأصبحنا في الهاوية. فقال: وما الهاوية؟ فقال: سجّين. قال: وما سجّين؟

قال: جبال من جمر توقد علينا إلى يوم القيامة. قال: فما قلتم، وما قيل لكم؟ قال: قلنا: ردّنا إلى الدنيا فنزهد فيها، قيل لنا: كذبتم. قال: ويحك! كيف لم يكلّمني غيرك من بينهم؟ قال: يا روح الله، إنَّهم ملجمون بلجام من نار على أيدي ملائكة غلاظ شداد، وإنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل العذاب عمَّني معهم، فأنا معلّق بشعرة على شفير جهنَّم، لا أدري أأكبّ فيها أم أنجو منها.

فالتفت عيسى عليه السلام إلى الحواريّين فقال: «**يا أولياء الله، أكل الخبز اليابس بالملح الجريش، والنوم على المزابل، خير كثير مع عافية الدنيا والآخرة**».

ويكفي لمعرفة عظم ذنب حبّ الدنيا، أنَّه في هذه الرواية سبب التعجيل بالعقوبة والهلاك الأبديّ.

الكليني، الكافي، ج٢، ص٣١٨

الدرس السادس

التوبة



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى فلسفة التوبة.

٢. أن يتعرّف إلى حقيقة التوبة وضرورتها.

٣. أن يحدِّد أركان وشرائط التوبة.

٤. أن يتعرّف إلى ثمار التوبة.







تمهيد

إنَّ أفضل طريق للتزكية هو عدم التلوّث بالمعصية من أساس، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**ترك الذنب أهون من طلب التوبة**»(١).

لكن لو فرضنا أنَّ الإنسان ابتلي بالمعصية، فيجب ألّا ييأس من رحمة اللّه تعالى، لأنَّه قد فتح لعباده باب التوبة، فالتوبة: هي من المهذِّبات للنفس، وهي الوسيلة لغسل النفس من قذارات الذنوب، وهي عبارة عن التصميم على اجتناب الذنوب والمعاصي، والندم عليها مع الحذر الشديد من الشيطان واغراءاته، الذي يدعونا باستمرار للإستهانة بالمحرَّمات والمعاصي والعودة إليها، وقد شجَّع الإسلام على التوبة، وحذَّر من اليأس بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

١- فلسفة التوبة

إنَّ الذي عصى في هذه الدنيا وتحدَّى إرادة اللّه سبحانه، يكون قد ابتعد عن مقام الإنسانيّة واقترب من مقام الحيوانيّة، وعندئذٍ يحرم هذا الإنسان من

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٦٤.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

بركات القرب من اللّه في الجنّة، ولا يبقى أمامه سوى التوبة والاستغفار، والذي أمر بالتوبة هو الذي يقبل التوبة، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

٢- حقيقة التوبة وشروطها

إنَّ الندم على الذنب هو توبة، لكن المقصود هو الندم الحقيقيّ، الذي يكون له آثاره ونتائجه على المستوى العمليّ، قد يتصوّر البعض أنَّ مجرَّد قوله «**تبت إلى اللّه**» يكفي لتحقّق التوبة، وهو غير صحيح لأنَّ التوبة لها شروط لا تتحقَّق إلّا بها وهي:

١ - أن يشعر بالنفور من ذنبه وتغلُبه الحسرة عليه.

٢ - أن يصمِّم على عدم العودة إلى الذنب مجدَّداً.

٣- أن يسعى لجبران ما أمكن جبرانه، كأن يؤدّي حقَّ أحد من الناس كان قد غصبه حقَّه، أو أن يطلب المسامحة ممّن استغابه، أو أن يُرضي من ظلمه، أو أن يقضي ما فاته من فرائض وواجبات، كالصلاة والصوم، وهكذا..

يقول الإمام عليّ عليه السلام بعد أن سمع رجلاً يقول استغفر اللّه: «**ثكلتك أمُّك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان، أوّلها: الندم على ما مضى؛ والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً؛ والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقّهم حتّى تلقى اللّه أملس ليس عليك تبعة؛ والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيَّعتها فتؤدّي حقّها؛ والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتّى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد؛ والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: استغفر اللّه**»(٢).

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٥.

(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٣٢.

٣- ضرورة التوبة

إذا كنَّا ندرك تلك الآثار الخطيرة للذنوب في الدنيا والآخرة، كأن تنزل النقم وتحبس النعم وتمنع الرزق وتجرّنا إلى العذاب الأليم، فإنَّ العاقل المؤمن بالمعاد وبربِّ العباد، لا بدّ أن يبادر إلى إعلان توبته، وتطهير نفسه حتّى لا يكون محروماً في الدنيا وشقيّاً في الآخرة، وإنَّ التوبة من الذنوب تؤدّي إلى تطهير القلوب.

عن أبي جعفر عليه السلام: «**ما من عبدٍ إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتّى يغطّي البياض، فإذا غطىّ البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[1].

٤- الأمور التي يجب التوبة منها

يجب على الإنسان أن يتوب من كلّ ما يحول بينه وبين السير والسلوك إلى الله تعالى، يجعله متعلّقاً بالدنيا، ويمكن تقسيم الذنوب التي يجب أن نتوب منها إلى قسمين: أخلاقيَّة وعمليَّة:

أ - **الذنوب الأخلاقيّة:** والمراد بها الأخلاق السيّئة والصفات القبيحة، التي تلوّث النفس وتجعل الحجب بينها وبين الله تعالى، كالرياء، والنفاق، والغضب، والتكبّر، والعجب، والمكر، والخداع، والغيبة، والبهتان، والكذب، وخلف الوعد، وعقوق الوالدين، وقطع الرحم، والتبذير، والإسراف، والحسد، والفحش، والسباب، وسوء الظنِّ، وتتبّع عيوب الناس، واحتقار المؤمن وإذلاله، وغير ذلك من الصفات السيّئة.

ب - **الذنوب العمليَّة:** وهي كلّ الذنوب التي ترتبط بالأعمال كالسرقة، وقتل النفس، والزنا، ودفع الربا وأخذه، وغصب أموال الناس، والغشّ

(١) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٦١.

فـي المعاملة، والفرار من الجهاد، وخيانــة الأمانة، وشرب الخمر، وترك الصــلاة والصيام والحجّ والخمسـ، وترك الأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر، وأكل الطعام النجس وغير ذلك من المحرّمات.

٥- ثمار التوبة

للتوبة ثمار جليلة في الدنيا وفي الآخرة أهمّها:

أ- تكفير السيّئات ودخول الجنّة: إنَّ التوبة تؤدّي إلى إزالة سيّئات الإنسان من صحيفة أعماله، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[١].

ب- محبّة الله: إنَّ التائـب الحقيقـيّ سـوف يحصل علـى محبّة اللّه تعالى وينال رضاه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢].

ج- الستر: إنَّ توبـة العبد تؤدّي إلى الستر عليـه، فيأتي يوم القيامة لا يُدرى بذنبـه، يقول الإمام الصـادق عليه السلام: «**إذا تـاب العبد توبةً نصوحـاً أحبَّه اللّه فستـرَ عليـه، فقلـت: وكيف يستر عليـه؟ قال: ينسي ملكيـه ما كانا يكتبـان عليـه، ويوحي الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله عزَّ وجلَّ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب**»[٣].

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٣) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٢٣٦.

خلاصة الدرس

١- أفضل سبيل للتزكية عدم المعصية.

٢- فلسفة التوبة أنّها تفتح باباً للرحمة والقرب من اللّه.

٣ - حقيقة التوبة الندم الذي يستلزم ترك الذنب وتأدية الحقوق.

٤ - من يدرك خطورة الذنب لا بدّ أن يقدم على التوبة.

٥ - مـا يجـب التوبة منه ليس فقط الذنـوب العمليَّة كالسرقـة وقتل النفس والزنا. بل أيضاً الذنوب الأخلاقيّة والرياء والنفاق والغضب.

٦- للتوبة ثمـار كثيرة، منها تكفير السيّئات وتبديلها إلى حسنات ومحبّة اللّه والستر و..



توبة مالك بن دينار

جاء في (تفسير روح البيان) عن مالك بن دينار، أنَّه سُئل عن سبب توبته وتوجّهه إلى اللّه عزَّ وجلّ، فأجاب:

«كنت في مطلع العمر قاسياً، شارباً للخمرة، وكانت لديَّ جارية قد تعلَّقت بها، ورزقني اللّه منها ابنة، وكانت محبَّتها تزداد في قلبي يوماً بعد يوم، ولمّا أصبحت قادرة على المشي كانت محبَّتها قد بلغت عندي مبلغاً كبيراً، وكانت تألفني وتأنس بي كثيراً، كما كنت أبادلها الألفة والأنس.

كانت كلّما تناولتُ كأس الشراب أخذتها من يدي وسكبت ما فيها على ثيابي؛ ولمّا بلغت عامين من عمرها ماتت، فملأت قلبي الغصص المرَّة على فقدها، ولم أستقرّ من يومها على حال.

وفي ليلة جمعة من ليالي شعبان، تناولت الشراب ونمت دون أن أصلّي العشاء، فرأيت فيما يراه النائم أنَّ أهل القبور خرجوا من قبورهم، وحشروا جميعاً وأنا معهم. وفجأةً سمعت من ورائي صوتاً، وحين استدرت رأيت أفعى سوداء كبيرة، لا يمكن تصوّر ما هو أكبر منها، وكانت تتّجه نحوي بسرعة وفمها مفتوح، أصابني الهلع والخوف، فانطلقت هارباً، لكنّها اندفعت خلفي بسرعة كبيرة.

لقيت في طريقي شيخاً مسنّاً حسن الوجه والرائحة، حيّيته فردَّ تحيّتي، رجوته أن يغيثني ويحميني، فأجاب: يؤسفني أنّي لا أقدر على شيء أمام هذه الأفعى، فاذهب من هنا بسرعة، لعلّ اللّه يهيّىء لك أسباب النجاة.

فعدت إلى الهرب بسرعة، حتّى بلغت منزلاً من منازل القيامة، ورأيت من هناك طبقات جهنَّم وأهلها، وكدت من شدّة خوفي من الأفعى أن ألقي بنفسي فيها.

ارتفع صوت حادّ يقول: هيا ارجع، فلست من أهل هذا المكان.

سكن قلبي بعد سماعي لهذا الصوت، وعدت أدراجي، ورأيت أن الأفعى ما زالت تلاحقني، حتّى وصلت إلى ذلك الشيخ، فقلت له: أيّها الشيخ الطيب، لقد رجوتك أن تغيثني فلم تأبه لي؛ بكى الشيخ وقال: لم أستطع. ولكن اذهب نحو هذا الجبل، ففيه أمانات للمسلمين، فإن كانت لك فيه أمانة فإنَّها ستمدّ لك يد العون.

تطلّعت إلى الجبل فرأيت فيه غرفاً وحجرات قد أسدلت عليها الستائر، وأبوابها من الذهب الأحمر المحلّى بالدرّ والياقوت، فأسرعت نحو ذلك الجبل، والأفعى في أثري، وما إن اقتربت منه حتّى ارتفع صوت ملائكي يقول:

ارفعوا الستائر وافتحوا الأبواب واخرجوا، فلعلَ لهذا المسكين أمانة بينكم، تغيثه من شرّ الأعداء.

نظرت فرأيت أطفالاً وجوههم تشعّ كالبدور، يخرجون إليَّ، والأفعى أضحت قريبة منّي كذلك، وأنقذني من حيرتي صراخ الأطفال وهم يقولون: عجّل، فالعدوّ قريب منك!

وبدأوا يتوافدون نحوي فوجاً إثر الآخر، وفجأةً رأيت ابنتي التي توفّيت بينهم، فما أن رأتني حتّى صاحت وهي تبكي:

إنَّه أبي واللّه!

ثمَّ سارعت فأخذت يمناي بيسراها، بينما أشارت بيمناها إلى الأفعى، فاستدارت الأفعى وانطلقت هاربة.

ثمَّ أجلستني وجلست إلى جانبي، وراحت تداعب لحيتي، وقالت:

أي أبه، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾[1]؟ فبكيت. وقلت:أي بنيّة، وهل تحسنين تلاوة القرآن المجيد؟!

قالت: نحن بالقرآن أكثر معرفة منكم يا أبي.

قلت: أخبريني عن هذه الأفعى، ما قصَّتها؟

قالت: إنَّها عملك السيّء يا أبي، فقد كنت تعطيها القوّة، وكانت تريد أن تبعث بك إلى جهنّم.

قلت: وهذا الشيخ المسنّ،من هو؟

قالت: إنّه عملك الحسن، وقد كنت تعمل على إضعافه (أي فاق عملك السيّء عملك الحسن) فلم يستطع مدّ يد العون إليك أمام عملك السيّىء.

قلت: وماذا تعملين يا ابنتي في هذا الجبل؟

قالت: نحن أطفال المسلمين، الذين قدمنا من الدنيا في طور الطفولة إلى هذا المكان، وقد أقرَّنا اللّه عزَّ وجلّ فيه إلى يوم القيامة، وأعيننا على الطريق الذي يسلكه آباؤنا وأمهاتنا إلينا، فنشفع لهم.

وهنا استيقظت من نومي فزعاً، وتركت شرب الخمرة وغيرها من الذنوب كلّياً، وتوجّهت إلى اللّه نادماً تائباً. وهذا هو سبب توبتي».

القلب السليم، ج٢، ص ١٨-٢١



(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.



الدرس السابع

التقوى



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى حقيقة التقوى.

٢. أن يكتشف آثار التقوى: الأخرويّة والدنيويّة.

٣. أن يثمّن أهميّة التقوى.





تمهيد

إنَّ تقوى اللّه تعالى عامل مهمٌّ لتزكية النفس وتهذيبها، ويترتّب عليها آثار مهمّة في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١].

وقبل أن نتوسَّع في الحديث عن التقوى، لا بدَّ أن نوضّح مفهوم التقوى ومعناها.

١- تعريف التقوى

يمكن تعريف التقوى بأنَّها: قوّة داخليّة وقدرة نفسيّة تمتلك من خلالها النفسُ القدرةَ على إطاعة الأوامر الإلهيّة، وعلى مقاومة ميولها وأهوائها.

ومنشؤها: الخوف من اللّه، وأثرها: تجنّب معصيته وسخطه، وهي تساعد الإنسان على تجنُّب حبائل الشيطان وإغراء الدنيا.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**اعلموا عباد الله أنَّ التقوى دار حصن عزيز، والفجورُ دارُ حصنٍ ذليل، لا يمنع أهله، ولا يُحْرِزُ من لجأ إليه، ألا وبالتقوى تقطع حُمَةُ الخطايا**»[٢].

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ١٥٧.

٢- أهميّة التقوى

أ- هدف تشريع الأحكام

يستفاد من القرآن الكريم أنَّ لتقوى اللّه عزَّ وجلّ قيمة أخلاقيَّة أصيلة، وأنَّها الهدف لتشريع الأحكام، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

فالهدف من عبادة اللّه تعالى الوصول إلى التقوى، كما أنَّ العبادة يمكن أن تكون تعبيراً عن هذه التقوى، وفي آية أخرى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢]، حيث بيّنت أنَّ الهدف من القصاص هو التقوى.

ب - تورث البصيرة

يستفاد من عدّة آيات وروايات أنَّ تقوى اللّه تمنح الإنسان بصيرة تمكّنه من معرفة الحقّ لاتّباعه، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[٣].

إنَّ التقوى تداوي القلب وتهبه البصيرة، فيستطيع عندها أن يشخّص سبيل سعادته، وأن يتجنّب سبل المهالك، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فإنَّ تقوى اللّه دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم**»[٤].

إنَّ أهواء النفس يمكن أن تشوّش على العقل رؤيته، ومن هنا يأتي دور التقوى في علاج ذلك الخلل، فالتقوى هي من يكبح جماح الشهوات فيستعيد العقل قدرته على الرؤية.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٤) نهج البلاغة، خطبة ١٩٨.

ج -طريق التقوى والحريَّة

إنَّ الإسلام لا يرى في التقوى تقييداً للحريّة، بل على العكس من ذلك، يرى أنَّها هي التي تمنح الإنسان حريَّته من شهواته وغرائزه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فإنَّ تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كلّ ملكة، ونجاة من كلّ هلكة**»[١].

٣- جزاء التقوى في الآخرة

للتقوى نتائج أخرويّة جليلة جدّاً

منها: الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

ومنها: إنَّ من يتّقي الله لا يتسرَّب الحزن إلى قلبه في الآخرة ولا يخاف عليه، قال تعالى:

﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣].

ومنها: أنَّ التقوى جزاؤها الجنّة وهي دليل الفوز، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾[٤].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**شرف كلّ عمل بالتقوى، وفاز من فاز من المتّقين، قال الله تبارك وتعالى:** ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٥].

٤- آثار التقوى في الدنيا

إنَّ لتقوى الله تعالى نتائج عديدة في الدنيا، من المفيد أن نشير إلى بعضها:

(١) نهج البلاغة، خطبة ٢٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الطور، الآية: ١٧.
(٥) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٧٨، ص ١١٠.

منها: أنَّها تحفّز الإنسان على الأخلاق الحسنة، ولا شكّ أنَّ الأخلاق لها أثرها في الدنيا كما في الآخرة. عن الإمام عليّ عليه السلام: «**التقوى رئيس الأخلاق**»[1].

ومنها: أنَّ التقوى تبعث الرزق، وتمكّن الإنسان من تجاوز العقبات والأزمات، والتغلّب على مشاكل الحياة، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿ومن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ من أَمرِهِ يُسْراً﴾[3].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يوضّح ذلك: «**فمن أخذ بالتقوى عَزَبَتْ عنه الشدائدُ بعد دنوِّها، وَاحلَوْلَت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأَسْهَلَتْ له الصعاب بعد إنْصَابِهَا**»[4].

ومنها: صحّة البدن، فقد ثبت وجود علاقة بين نفس الإنسان وبدنه، وأنَّ كلاً منهما يؤثّر بنحو ما على الآخر، ولهذا فإنَّ بعض الأمراض البدنيّة والنفسيّة قد تنشأ من الأخلاق السيّئة، كالحسد، والحقد، والغضب، والطمع، والتكبّر، وحبّ الذات، والغرور.. فالتقوى واجتناب الأمور السيّئة لها تأثير مهمّ وأساس في علاج الأمراض الجسديّة والنفسيّة، وهي تساعد على تأمين سلامة الإنسان من هذه الأمراض.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فإنَّ تقوى الله... شفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم**»[5].

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٢.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٤.
(٤) نهج البلاغة، خطبة ١٩٨.
(٥) م.ن، خطبة ١٩٨.

خلاصة الدرس

١- التقــوى حالة روحيّة وقدرة داخليّة نفسانيّة، يستطيع الإنسان من خلالها إطاعة اللّه واجتناب معاصيه.

٢- تبرز أهميّة التقوى بملاحظة الأمور التالية:

أ - الهدف من تشريع الأحكام.

ب - تورث البصيرة.

ج - طريق للحريّة.

٣- للتقوى ثمار أخرويّة كثيرة منها: الأجر العظيم وعدم الحزن والنعيم.

٤- للتقــوى ثمار دنيويّة عديدة، كالــرزق وقدرة الإنسان على تجاوز مشاكله، وصحّة البدن.



الشاب اليقينيّ

ذهب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد ليؤدّي صلاة الفجر، فلّما أتمّ الصلاة بالناس، كان الظلام قد سحب أثوابه خوفاً من أن يحرقها وهج الصباح، ولمّا أوشك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على مغادرة المسجد، إذا بشابّ مصفرِّ اللون قد ضعف جسمه ونحف، وغارت عيناه في رأسه.

فسأله رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم : كيف أصبحت يا فلان؟

فأجاب الشاب: أصبحت موقناً يا رسول اللّه.

فتعجّب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من قوله وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنَّ لكلّ يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟

فقال الشاب النحيل: إنَّ يقيني يا رسول اللّه هو الّذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ نهاري، فزهدت نفسي في الدنيا وما فيها، فكأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتمتّعون في الجنّة، ويتعافون على الآرائك متّكئون، وكأنِّي أنظر إلى أهل النَّار وهم فيها معذّبون مستغيثون، وكأنّي الآن أسمع زفير النَّار يدور في مسامعي.

فالتفت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى أصحابه وقال: هذا عبد نوّر اللّه قلبه بالإيمان. ثمَّ أوصى الشاب قائلاً: التزم ما أنت عليه.

فقال الشاب: اُدع اللّه لي يا رسول اللّه أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فلم يلبث أن خرج في إحدى غزوات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فاستشهد بعد تسعة أشخاص فكان هو العاشر.

قصص الأبرار للشهيد مطهّري قدس سره



الدرس الثامن

العصبيّة



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى حقيقة العصبيَّة وأخطارها.

٢. أن يزداد انتباهاً لخطورة التعصّب العائليّ والعشائريّ...

٣. أن يتعرّف إلى حقيقة العلاقة التي تمثّلها الأخوَّة بين المؤمنين.





تمهيد

إنّ من أهمّ الأمور التي ينبغي الالتفات لها في عمليّة تهذيب النفس، هي العصبيّة، حيث قد يتحلّى الإنسان المؤمن بكثير من الصفات الحسنة والممدوحة، وتبقى هذه الصفة وهي العصبيّة كامنة في باطنه قبل أن تثيرها الأحداث والمناسبات، فعلى الإنسان المؤمن أن يستثير هذه الصفة، ويلتفت إلى الموقف الذي ينبغي أن يتّخذه فيما لو ابتلى بمورد تتحرّك فيه المشاعر التي قد تؤدّي إلى العصبيّة، فما هي العصبيّة؟ وما هي آثارها؟ وما هو موقف الإسلام منها؟

١ - تعريف العصبيّة

إنَّ العصبيّة صفة سيّئة، تمنع صاحبها من القرب الإلهيّ، وتحجبه عن رؤية الحقّ، وقد تلقي به في نار جهنّم، وهي الدفاع عن جهة أو شخص، بحيث يرى باطلها حقّاً، وإن كانوا على باطل، ويرى من يقف في مقابلهم على باطل وإن كانوا محقّين.

٢- العصبيّة في الرؤية الإسلاميّة

أ - حـذّر القرآن الكريم مـن العصبيّة، وجعلها من أوصـاف الكافرين، يقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[١]، ولذا كان من يتّصف بها كأنّه يتّصف بصفة الكفر، وتترتّب عليه آثار الكفر يوم القيامة.

ب - عن الإمام الباقر عليه السلام: «**من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبيّة بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهليّة**»[٢].

وتفسير هذه الصفة الواردة في الرواية؛ من حشره مع أعراب الجاهلية؛ لأنّ هذا المقدار من العصبيّة حتّى لو كان قليلاً إلى هذا الحدّ.(حبّة من خردل)، لكنَّه من الممكن أن يوديَ بصاحبه إلى جهنّم، وأن يخرجه عن الصراط المستقيم، وهو ليس كلاماً على ورق، بل قد حصل ويحصل، وممّن حصل معهم إبليس - لعنه الله - إمام المتعصّبين: إنَّ إبليس هو أوّل من تعصَّب، وهو إمام المتعصّبين، يستفزّهم في الدنيا ويقودهم في الآخرة إلى نار جهنّم.

٣- إبليس رأس العصبيّة

إنَّ من يتعصَّب فليعلم أنَّ إبليس قد نفخ في أوداجه، لأنّ العصبيّة هي ريح إبليس، بغضِّ النظر عمَّن يتعصّب له، إذ أنَّ المتعصِّب قد يتعصَّب لعائلته، أو منطقته، أو عشيرته، أو غير ذلك، وكلّه من العصبيّة التي مصيرها النار وغضب الجبَّار، فإنَّ إبليس قد تعصَّب لأصله كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**... فافتخر على آدم بخلقه وتعصَّب عليه لأصله، فعدوّ الله إمام المتعصّبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبيّة..**»[٣].

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٦.

(٢) الكافي، الكليني، ج٢، ص ٣٠٨.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، ص ١٣٨.

ويقول عليه السلام: «**اعتَرَتْهُ (إبليس) الحميَّة وغلبت عليه الشِّقْوَة، وتعزّز بخلقة النار، واستوهن خلق الصَّلصَالِ**»[1].

وهنا يشير إلى تعصُّب إبليس لخلقته الناريّة، في مقابل خلقة آدم الطينيّة، حيث نظر إليها بعين التوهين والاحتقار. ويوضّح عليه السلام ذلك فيقول في مورد آخر من نهج البلاغة: «**ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصَّب لشيءٍ من الأشياء، إلَّا عن علَّة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجَّة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنَّكم تتعصَّبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علَّة، أمَّا إبليس فتعصَّب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته، فقال: أنا ناريّ وأنت طينيّ، وأمَّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصّبوا لآثار مواقع النّعم، فقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين**»[2].

٤- العصبيّة المذمومة

إنَّ هذا التعصُّب المذموم في الرؤية الإسلاميّة؛ هو التعصُّب الذي يُخرج المرء عن جادّة الصواب، ويتمسّك بعصبيّة حتّى لو كان في ذلك نصرة للباطل وانتهاكاً للحرام وتجاوزاً للشرع، وإلَّا فإنَّ مودَّة الرجل لأهله وأبناء قومه ليست عصبيّة.

فعن الإمام زين العابدين عليه السلام بعد أن سئل عن العصبيّة قال: «**العصبيّة التي يأثم عليها صاحبها، أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبيّة أن يحبّ الرجل قومه، ولكن من العصبيّة أن يعين قومه على الظلم**»[3].

(١) م. س، النهج، خطبة ١.
(٢) م.ن. خطبة ١.
(٣) م.ن، خطبة، ١٩٢.

٥- العصبيّة الممدوحة

نلحظ في كلام المعصومين (عليهم السلام) إشارة إلى تعصُّب غير مذموم، لكنَّه في الواقع ليس تعصُّباً، بل هو تمسّك بالدين، وبأخلاق سيّد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم). وهو ما نراه واضحاً في حديث أمير المؤمنين (عليه السلام): «**فإن كان لا بدَّ من العصبيَّة فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور، التي تفاضلت فيها المُجداء والنُّجداء من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل، بالأخلاق الرغيبة والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة. فتعصَّبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبرّ، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكفّ عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض**»[1].

النتيجة:

لذا يجب أن نلتفت إلى هذا المرض الخطير والداء الكبير، فإذا أردنا أن نسعى لمقام القرب، وأن نزكّي أنفسنا، فلا بدَّ من استئصاله حتّى لا نقع في شرك إبليس ونكون من جنوده وأعوانه.



(١) المجلسيّ، بحارالانوار، ج١٤، ص٤٧٢.

خلاصة الدرس

١ – العصبيّة هي أن ينتصر المرء لشخص أو جماعة وإن كانوا على باطل.

٢ – للعصبيّة أكثر من منشأ كالعرق والعشيرة والأهل والمنطقة والبلد.

٣ – إنَّ إبليس إمام المتعصّبين، فهو أوّل من تعصَّب حين فضَّل نفسه على آدم عليه السلام.

٤ – إنَّ مودّة الرجل لبني قومه ليست من العصبيّة.

٥ – إنَّ التعصّب لمكارم الأخلاق هو في الواقع تعصّب للدين وليس من العصبيّة بشيء.



لا تغضب

أتى المدينة رجل من البادية وذهب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يستنصحه فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تغضب**».

وعندما رجع إلى قبيلته أُخبر بأنَّ بعض صبيانها سرقوا مالاً من قبيلة أخرى فعوملوا بالمثل، فأسفرت النتيجة باصطفاف القبيلتين للقتال وإشعال نار الحرب، فلمّا سمع الأعرابيُّ بهذا الخبر اضطرمت نار الغضب في داخله، فقام وطلب سرجه والتحق بصف قومه. وبينما هو كذلك إذا بشريط الذكريات يتوالى في ذهنه، فتذكَّر أنَّه ذهب إلى المدينة وطلب من النبيّ أن ينصحه، وكانت نصيحة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم له: «**لا تغضب**».

ساعتئذٍ ثاب الأعرابيُّ إلى رشده ورجع إليه عقله، ففكّر في نفسه: «**فيم الانفعال؟ ما هذا الاستعداد للحرب والقتال؟ وفيمَ الغضب من غير سبب**»؟ وإذا بنصيحة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تدعوه إلى نصح زعماء أعدائه فناداهم قائلاً: يا قوم علام هذا النزاع؟ إن كان لكم من جراحة أو قتل أو ضرب ليس فيه أثر، فعليّ في مالي أنا أوفيكموه، فليس هنالك من سبب للقتال وسفك الدماء.

فلمّا سمع زعماء القوم كلامه تحرّكت في نفوسهم الغيرة والشهامة وقالوا: «**فما كان فهو لكم، ونحن أولى بذلك منكم**» فتصالح الطرفان ورجع الصفّان كلّ إلى قبيلته.

مرتضى مطهري، قصص الأبرار، القصّة ١٣ ص٢٣



الدرس التاسع

المراقبة والمحاسبة



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى أهميَّة محاسبة النفس.

٢. أن يمتلك وينفّذ برنامجاً للمحاسبة.

٣. أن يفعّل حوافز محاسبة النفس.

٤. أن يمتلك الجديَّة اللازمة في الالتزام الدينيّ.





تمهيد

بعد أن تعرّفنا على أمراض القلوب، وعرفنا بعض العقبات الكؤود التي تحول دون تهذيب النفس؛ كحبّ الدنيا والعصبيّة، وعرفنا أهميّة التقوى ومدى حثّ الإسلام عليها وربط الأحكام بها، لا بدّ لنا بعد ذلك من أن نقدّم مرحلة عمليّة مهمّة في بناء النفس، وهي المراقبة والمحاسبة. وتبرز أهميتها بأنَّها العامل الأساس للوصول إلى التقوى وتهذيب النفس.

١-تعريف المراقبة والمحاسبة

المراقبة هي أن يراقب الإنسان نفسه عند الخوض في الأعمال في كلّ حركة وسكون. لذلك تكون المراقبة عامل وقاية من الذنوب والأمراض. والمحاسبة هي أن يعيّن الإنسان وقتاً في كلّ يوم يحاسب نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه العمليّة منها والنفسيّة، لذلك تكون المحاسبة عامل علاج من الذنوب والأمراض بعد الأعمال.

٢- أهميّة المراقبة والمحاسبة

لكي ندرك أهميّة المراقبة والمحاسبة علينا أن نلاحظ الأمور التالية:

أ - تسجيل الأعمال: حيث يستفاد من القرآن الكريم أنَّ كلَّ أعمالنا، حتّى الأنفاس والأفكار والنوايا محفوظة في صحيفة أعمالنا، وتبقى ليوم القيامة لتكون ماثلة أمامنا. وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكننا الغفلة عن عواقب هذه الأعمال، وعدم المبادرة إلى مراقبة أنفسنا والانتباه إلى أقوالنا وأعمالنا ونوايانا؟!

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١].

وفي آية أخرى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[٢].

وفي آية ثالثة ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٣].

ب - الحساب على الأعمال يوم القيامة: إنَّ الحساب يوم القيامة حساب دقيق، حيث لا تترك صغيرة أو كبيرة إلّا ويحاسب عليها المرء يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[٤].

وفي آية أخرى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾[٥].

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٣) سورة ق، الآية: ١٨.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

ويقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

إنَّ جميع أعمال الإنسان وأقواله وأفكاره وعقائده تأتي معه يوم القيامة، ليحدّد مصيره يوم القيامة على ضوء هذا الحساب، الذي تختلف مدّته وشدّته بين شخص وآخر، حيث إنَّ بعض الناس يكون حسابه شديداً وطويلاً، وبعض آخر يكون حسابه سهلاً يسيراً. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**والذي نفسي بيده إنَّه ليخفف على المؤمن حتّى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا**»[2].

ولذلك كلِّه فإنَّ على الإنسان أن يكثر من مراقبة نفسه، لتبقى تحت سيطرته.

٣-ثمرة المحاسبة

إنّ لمحاسبة النفس ومراقبتها نتائج وثمار متعدّدة نشير إلى بعض منها:

أ- الشعور بالندم والبدء بالاستغفار: مع ملاحظة شروط الاستغفار.

ب - التعويض: وذلك من خلال تدارك ما فاته بأمور خيّرة كثيرة ليمحو ما مضى من ذنوبه قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[3].

ج-التزوّد: وهو الدخول في كثير من المستحبّات والأعمال الفاضلة لتثقيل الميزان يوم القيامة.

ففي وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**يا أبا ذر! حاسب نفسك قبل أن تُحاسب، فإنَّه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزن، وتجهَّز للعرض الأكبر يوم لا تخفى على الله خافية**»[4].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) مجمع الزوائد، ج١، ص٣٣٧.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٤) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج١١، ص ٣٧٩.

كيف نحاسب أنفسنا؟

إنَّ محاسبة النفس ليست بالأمر السهل، ولا بدَّ أن تتمّ هذه العمليَّة في ثلاث مراحل حتّى يعتاد الإنسان عليها:

١ - **المشارطة والعهد:** فيخلو الإنسان إلى نفسه، فيعظها ويطلب منها أن تغتنم عمرها، وبالتالي يأخذ منها العهد بألَّا ترتكب المعصية ولا تترك الطاعة، وكذلك يستطيع أن يتوجّه إلى لسانه ويحذّره الغيبة، والكذب، وبقيّة المعاصي التي تؤدّي إلى إفساد حياته في الآخرة، ويأخذ منه العهد على ألَّا يقع في هذه المحرَّمات، والشيء نفسه يمكن أن يفعله مع بقيّة الجوارح.

٢ - **المراقبة:** بعد الانتهاء من المعاهدة، تبدأ مرحلة مراقبة النفس، من أجل أن نردعها عن محاولة التخلّي عن الالتزام بالعهد، فمن كان دائماً في حال ذكر اللّه تعالى، ويرى أنَّه في محضره عزَّ وجلّ، فإنَّه سيلتفت دائماً إلى نفسه وإلى عهده، ويداوم على مجاهدتها ولا يغفل عنها، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**إنَّ الحازم من شغل نفسه فأصلحها وحبسها عن أهوائها ولذّاتها فملكها، وإنَّ للعاقل بنفسه عن الدنيا وما فيها وأهلها شغلاً**»[١].

٣ - **حثّ النفس وعتابها:** بعد انتهاء المراقبة، يجب أن يحدّد الإنسان ساعة كلّ يوم من أجل أن يحاسب نفسه، ولعلَّ الوقت الأفضل هو وقت المساء، فيجلس ليرى ما فعله في نهاره ساعةً بساعة، فإن فعل خيراً حمد اللّه تعالى على توفيقه لفعل الطاعة، وإن فعل المعصية وبَّخ نفسه وانتهرها، وأعلن توبته للّه تعالى وخاطبها: أيَّتُها النفس المحرومة، لقد أعطاك اللّه، ما أعطاك حتّى تصبحي من المقرّبين، فماذا تفعلين؟ لقد كفرت بنعمة اللّه، وتجعلين نفسك وقوداً لسجّيل؛ فلا يزال يشدّد عليها حتّى تنزجر، يقول الإمام عليّ عليه السلام:

(١) غرر الحكم، ص ١٢٦، حكمة ١٠٠.

«**من وبَّخ نفسه على العيوب ارتدعت عن كثرة الذنوب**»[١].

إنَّ حساب النفس من الأهميَّة بمكان، فإنّ الإمام الكاظم عليه السلام جعله مقياساً لمن ينتمي إلى أهل البيت عليهم السلام، يقول عليه السلام: «**ليس منَّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله وتاب إليه**»[٢].

وبالتالي إنَّ من يدرك شدّة الحساب يوم القيامة، فلا بدّ أن يسعى لتخفيف حسابه وجعله يسيراً، وهو ما يتطلّب أن يحاسب نفسه في الدنيا، مستفيداً من المشارطة والمراقبة، وهو ما يعني تزكية نفسه وتهذيبها لتبتعد عن المعصية وتقترب من الطاعة وتقدم على فعل الخيرات.



خلاصة الدرس

١- المراقبة هي أن يراقب الإنسان نفسه عند الخوض في الأعمال. والمحاسبة هي تعيين وقت لموازنة طاعاته ومعاصيه.

٢ - إنَّ من العوامل المهمّة لتزكية النفس، مراقبتها ليمنعها من المعصية.

٣- إنَّ كلّ أعمال الإنسان صغيرها وكبيرها تكون مسجَّلَةً يوم القيامة.

٤ - يحاسب الإنسان يوم القيامة حساباً دقيقاً على كلّ معتقداته وأفكاره وأعماله وأخلاقه.

٥- يستطيع الإنسان أن يحاسب نفسه في الدنيا، فيخفّف حسابه في الآخرة.

٦ - لا بدَّ للمرء أن يأخذ العهد من نفسه على عدم ارتكاب معصية ما أو فعل قبيح. ثمَّ يراقبها فإن وفت بعهدها شكر، وإلّا أغلظ عليها واستغفر.

---

(١) م. س، الغرر، ص ٣٦٨ ح ١٥٥٦.

(٢) الكليني، الكافي، ج١ ص ٤٥٣.



للمطالعة

المشارطة والمراقبة والمحاسبة

من الأمور الضروريّة للمجاهد المشارطة والمراقبة والمحاسبة، فالمشارط هو الذي يشارط نفسه في أوّل يومه على أن لا يرتكب اليوم أيّ عمل يخالف أوامر اللّه، ويتّخذ قراراً بذلك ويعزم عليه. وواضح أنّ ترك ما يخالف أوامر اللّه، ليوم واحد، أمر يسير للغاية، ويمكن للإنسان بكلّ سهولة أن يلتزم به.

فاعزم وشارط وجرّب، وانظر كيف أنّ الأمر سهل يسير.

ومن الممكن أن يصوّر لك إبليس اللعين وجنده أنّ الأمر صعب وعسير. فأدرك أنَّ هذه هي من تلبيسات هذا اللعين، فالعنه قلباً وواقعاً، وأخرج الأوهام الباطلة من قلبك، وجرّب ليوم واحد، فعند ذلك ستصدّق هذا الأمر.

وبعد هذه المشارطة عليك أن تنتقل إلى «**المراقبة**»، وكيفيّتها هي أن تنتبه طوال مدّة المشارطة إلى عملك وفْقَها، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شارطت، وإذا حصل - لا سمح اللّه - حديث لنفسك بأن ترتكب عملاً مخالفاً لأمر اللّه، فاعلم أنَّ ذلك من عمل الشيطان وجنده، فهم يريدونك أن تتراجع عمّا اشترطته على نفسك، فالعنهم واستعذ باللّه من شرّهم، وأخرج تلك الوساوس الباطلة من قلبك، وقل للشيطان: «**إنِّي اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم -وهو يوم واحد-بأيّ عمل يخالف أمر اللّه تعالى، وهو وليّ نعمتي طول عمري، فقد أنعم وتلطّف عليّ بالصحّة والسلامة والأمن وألطاف أخرى، ولو أنيّ بقيت في خدمته إلى الأبد لما أدّيت حقّ واحدة منها، وعليه فليس من اللائق أن لا أفي بشرط بسيط كهذا**»، وآمل - إن شاء اللّه - أن ينصرف الشيطان، ويبتعد عنك، وينتصر جنود الرحمن.

والمراقبة لا تتعارض مع أيّ من أعمالك، كالكسب والسفر والدراسة، فكن على هذه الحال إلى الليل ريثما يحين وقت المحاسبة.

وأمّا «**المحاسبة**» فهي أن تحاسب نفسك لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مع اللّه، ولم تخن وليّ نعمتك في هذه المعاملة الجزئية؟ إذا كنت قد وفيت حقّاً، فاشكر اللّه على هذا التوفيق، وإن شاء اللّه ييسّر لك سبحانه التقدّم في أمور دنياك وآخرتك، وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه، فواظب على هذا العمل فترة، والمأمول أن يتحوّل إلى ملكة فيك بحيث يصبح هذا العمل بالنسبة إليك سهلاً ويسيراً للغاية، وستحسُّ عندها باللذة والأنس في طاعة اللّه تعالى وترك معاصيه، وفي هذا العالم بالذات، في حين أنَّ هذا العالم ليس هو عالم الجزاء، لكن الجزاء الإلهيّ يؤثّر ويجعلك مستمتعاً وملتذّاً بطاعتك للّه وابتعادك عن المعصية.

واعلم أنّ اللّه لم يكلّفك ما يشقّ عليك به، ولم يفرض عليك ما لا طاقة لك به ولا قدرة لك عليه، لكنَّ الشيطان وجنده يصوّرون ذلك الأمر وكأنّه شاقٌّ صعب.

وإذا حدث - لا سمح اللّه - في أثناء المحاسبة تهاون وفتور تجاه ما اشترطت على نفسك، فاستغفر اللّه واطلب العفو منه، واعزم على الوفاء بكلّ شجاعة بالمشارطة غداً، وكن على هذا الحال كي يفتح اللّه تعالى أمامك أبواب التوفيق والسعادة، ويوصلك إلى الصراط المستقيم للإنسانيّة.



المرحلة الثانية
تربية النفس









الدرس العاشر

القرب من الله



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى أنواع القرب.

٢. أن يتعرّف إلى حقيقة حركة النفس وهدفها.

٣. أن يميّز شروط القرب.

٤. أن يعدّد أقسام الناس يوم القيامة.







تمهيد

ينبغي للمرء بعد أن يزيل أمراض نفسه، أن يسعى لتكميلها وتربيتها، حتّى تغدو قادرة على حثّ الخطى في طريق السير والسلوك إلى اللّه. ولمّا كانت طبيعة النفس البشريّة في حركة دائمة، وهي إمَّا أن تتحرّك في الصراط المستقيم، أو أن تنحرف في طريق الضلال.

ولمّا كان القرب من اللّه تعالى هو غاية المنى، لا بدَّ لمن جعل القرب هدفاً أن يسعى لتزكية نفسه، لأنَّه لا قرب بلا تزكية؛ ومن هنا فإنَّ العبد كلّما زكَّى نفسه، كلّما حاز على درجة من درجات القرب، وإذا ارتقى في سبيل القرب، فليس إلَّا لأنَّه أفلح في تزكية نفسه وتهذيبها.

١- أنواع القرب

توجد أنواع عديدة للقرب، منها:

أ- القرب المكانيّ: وهو تقارب شيئين من حيث المكان.

ب- القرب الزمانيّ: وهو تقارب شيئين من حيث الزمان، وهذه المعاني قطعاً ليست هي المقصودة في تعبيرنا «**القرب من الله**».

ج- القرب المجازيّ: كأن نقول إنَّ فلاناً قريب من فلان بمعنى أنّه يحبّه.

د- القـرب الحقيقـيّ: وهو نحو رابع مختلف عمّا سبق، يظهر معناه من خلال النفـس البشريّة، بأنّها في حركة مستمرّة حقيقية وواقعيّة. من هنا كان لا بـدّ لها في حركتها هـذه على الصراط المستقيم مـن أن تصل إلى مقام القرب، إذاً، القرب هو بمعنى: تكامل النفس وارتقائها المعنويّ والروحيّ، وبلوغهـا تلك الدرجـات العالية في سيرها وسلوكهـا إلى الله تعالى. يقول تعالـى: ﴿إِنَّ كِتَـابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَـا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1].

٢- السابقون هم المقرّبون

بعد: أن عرفنا معنى القرب، نرجع إلى القرآن الكريم لتحديد من هم المقرّبون، فنجده يقسّم البشر يوم القيامة إلى فئات ثلاث:

أ- أصحـاب الميمنـة: وهـم السعـداء، وهـم الذيـن كتبت لهـم النجاة من العذاب.

ب - أصحاب المشأمة: وهم الأشقياء؛ وهم المعذّبون بالنار.

ج - السابقون: وهم الذين نالوا درجة القرب الإلهيّ.

يقول تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[2].

(١) سورة المطففين، الآيات: ١٨ - ٢١.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٧- ١٢.

٣- شروط القرب

لكي يصل الإنسان إلى درجة القرب الإلهيّ عليه أن يحقّق شروطه: وهي عبارة عن: **المعرفة والإيمان**.

فإنَّ المعرفة والإيمان بالله تعالى هما أساس التكامل والقرب الإلهيّ، إنَّ من لا يعرف هدفه، والمصير الذي يؤول إليه، ولا يؤمن بهما، فإنَّه لن يسعى للتزكية والقرب من الله تعالى، وبالتالي فإنَّه لن يقطع مسافة على الصراط المستقيم؛ وبما أنَّه في الدنيا لم يطوِ الطريق فإنَّه في الآخرة لن يجوز الصراط.

يقول تعالى:﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١).

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢).

إنَّ من لا يعرف الآخرة ولا يؤمن بها، فإنَّه لن يسعى لقطع المسافة على الصراط المستقيم، بل سيضلّ عنه، ومن يضلّ عنه في الدنيا فإنَّه لن يتجاوزه في الآخرة. ولذا على السالك أن يسعى لتقوية إيمانه وزيادة علمه حتّى يرتقي أكثر في مقام القرب.

يقول تعالى:﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾(٣)

٤- العمل والإيمان

وثمّة شرط ثالث للقرب؛ وهو العمل المقرون بالإيمان، فإنَّ عمل الإنسان حتّى لو كان عملاً صالحاً فإنَّه لن يثمر تلك الحياة الطيّبة إذا لم يكن مقروناً بالإيمان، فالإيمان شرط أساس لوصول الإنسان إلى الحياة الطيّبة: ﴿مَنْ عَمِلَ

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٢) سورة الملك، الآية: ٢٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٤.

﴿صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[1].

والطيِّب لا يبقى في الأسفل بل يصعد إلى اللّه تعالى، حيث مقام القرب، يقول تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[2].

وعليه: فإنَّ الإيمان باللّه تعالى وبالمعاد، والمعرفة بهما، يساعدان الإنسان على الوصول إلى مقام القرب الإلهيّ، ولا يمكن أن يصل إلى درجات القرب من لم يطهّر نفسه من دنس المعاصي ومساوىء الأخلاق، فالتزكية أساس لمن عزم على أن يكون من المقرَّبين.

أسباب التكامل والقرب

يمكن الاستفادة من مجموعة وسائل لتكميل النفس وتربيتها، والوصول بها إلى مقام القرب الإلهيّ، وسنشير في الدروس الآتية إلى أهمّها وهي:

الأوّل: التعرّف على طرق الوصول وموانعه.

الثاني: ذكر اللّه.

الثالث: مكارم الأخلاق.

الرابع: العمل الصالح والصلاة الواجبة والنوافل وصلاة الليل.

الخامس: الجهاد والشهادة.

السادس: الإحسان وخدمة الناس، وغير ذلك ممّا سيأتي إن شاء اللّه.



(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.



خلاصة الدرس

١- هنـاك أنواع من القرب، والقرب الإلهيّ هو تكامل النفس في حركتها على الصراط المستقيم.

٢ - إنَّ الغاية لحركة الإنسان في الحياة هي القرب من اللّه سبحانه.

٣ - إنَّ تزكية النفس وتربيتها شرط للقرب من اللّه تعالى.

٤ - المقصود بالقرب تكامل النفس معنويّاً وارتقاؤها روحيّاً.

٥ - يقسَّم البشر يوم القيامة إلى أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة والمقرّبين.

 للمطالعة 

إرشادات الإمام الصادق عليه السلام للبصريّ

كان عنوان البصريّ شيخاً كبيراً، قد أتى عليه أربع وتسعون سنة، قال: كنت أختلف إلى مالك بن أنس سنين، فلمَّا قدم جعفر الصادق عليه السلام المدينة اختلفت إليه، وأحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوماً: إنّي رجل مطلوب، ومع ذلك لي أوراد في كلّ ساعة من آناء الليل والنهار، فلا تشغلني عن وردي، وخذ عن مالك، واختلف إليه كما كنت تختلف إليه، فاغتممت من ذلك، وخرجت من عنده وقلت في نفسي: لو تفرَّس فيَّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه، فدخلت مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسلَّمت عليه، ثمَّ رجعت من الغد إلى الروضة وصلَّيت فيها ركعتين وقلت: أسألك يا الله يا الله أن تعطف عليَّ قلب جعفر عليه السلام وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم، ورجعت إلى داري مغتمّاً ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما أشرب قلبي من حبّ جعفر عليه السلام، فما خرجت من داري إلَّا إلى الصلاة المكتوبة حتّى عيل صبري، فلما ضاق صدري تنعَّلت وتردَّيت، وقصدت جعفراً عليه السلام، وكان بعدما صلَّيت العصر، فلّما حضرت باب داره استأذنت عليه فخرج خادم له فقال: ما حاجتك؟ فقلت: السلام على الشريف، فقال: هو قائم في مصلّاه، فجلست بحذاء بابه فما لبثت إلّا يسيراً إذ خرج خادم فقال: أدخل على بركة الله، فدخلت وسلَّمت عليه، فردَّ السلام وقال: اجلس غفر الله لك، فجلستُ فأطرق مليّاً، ثمَّ رفع رأسه، وقال: أبو مَن؟ قلت: أبو عبد الله، قال: ثبَّت الله كنيتك ووفّقك. يا أبا عبد الله ما مسألتك؟ فقلت في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم غير هذا الدعاء لكان كثيراً، ثمَّ رفع رأسه، ثمَّ قال: ما مسألتك؟ فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك

عليَّ ويرزقني من علمك، وأرجو أنّ اللّه تعالى أجابني في الشريف ما سألته، فقال: يا أبا عبد اللّه، ليس العلم بالتعلّم، إنَّما هو نور يقع في قلب مَن يريد اللّه تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أوّلاً في نفسك حقيقة العبوديّة، واطلب العلم باستعماله، واستفهم اللّه يفهمك. قلت: يا شريف، فقال: قل يا أبا عبد اللّه، قلت: يا أبا عبد اللّه ما حقيقة العبوديّة؟ قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوَّله اللّه ملكاً، لأنَّ العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال اللّه يضعونه حيث أمرهم اللّه به، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم يرَ العبد لنفسه فيما خوَّله اللّه تعالى ملكاً، هان عليه الإنفاق فيما أمره تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوَّض العبد تدبير نفسه على مدبره هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره اللّه تعالى ونهاه، لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس. فإذا أكرم اللّه العبد بهذه الثلاث هان عليه الدنيا، وإبليس، والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً، أو تفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزّاً وعلوّاً، ولا يدع أيَّامه باطلاً، فهذا أوّل درجة التُّقَى، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. قلت: يا أبا عبد اللّه أوصني، قال: أوصيك بتسعة أشياء، فإنَّها وصيّتي لمريدي الطريق إلى اللّه تعالى، واللّه أسأل أن يوفّقك لاستعماله، ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإيّاك التهاون بها، قال عنوان: ففرغت قلبي له.

فقال: أمَّا اللواتي في الرياضة (تهذيب الأخلاق النفسيّة): فإيّاك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنّه يورث الحماقة والبله. ولا تأكل إلَّا عند الجوع، وإذا أكلت فكُل حلالاً وسمِّ اللّه، واذكر حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما ملأ آدميّ وعاءً شرّاً من بطنه،**

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

فإن كان ولا بدّ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

وأمَّا اللواتي في الحلم: فمَن قال لك: إن قلت واحدةً سمعت عشراً فقل: إن قلت عشراً لم تسمع واحدةً، ومَن شتمك فقل له: إنٍ كنت صادقاً فيما تقول فاسأل اللّه أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فاللّه أسأل أن يغفر لك، ومَن وعدك بالخنى (الفحش في الكلام) فعده بالنصيحة والرعاء.

وأمَّا اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإيّاك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإيَّاك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالإحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً. قم عنّي يا أبا عبد اللّه فقد نصحت لك ولا تفسد عليّ وردي، فإنّي امرئ ضنين بنفسي، والسلام على من اتبع الهدى».

المجلسي، بحار الأنوار، ج١ ص ٢٢٤



الدرس
الحادي عشر

طرق وموانع الوصول إلى مقام القرب الإلهيّ



أهداف الدرس

١. أن يعدِّد الطالب طرق الوصول إلى الله.

٢. أن يستذكر الأمور المساعدة على الوصول.

٣. أن يتعرّف الموانع من الوصول.







تمهيد

بعد أن عرفنا أهميّة القرب من اللّه سبحانه وتعالى، وضرورة السعي للوصول إلى هذه الدرجة، فإنّ الوصول إليها لا يمكن إلّا عبر طرقٍ يأمن باتِّباعها من الإنحراف ويضمن النجاة يوم القيامة.

١- طرق الوصول

إنَّ من أراد أن يرتقي في درجات القرب من اللّه تعالى، وأن يزكّي نفسه وينال المقامات العالية، يمكن له أن يستفيد من الطرق التالية:

١ - **التفكّر والبرهان:** إنَّ التفكّر في البراهين التي أقيمت على وجود اللّه تعالى، يمكن أن تكون عاملاً مساعداً للقرب من اللّه تعالى، فإنَّ البراهين التي حفلت بها كتب الحكمة والعرفان والكلام، تثبت أنَّ كلّ ظواهر الكون ممكنة وفقيرة في وجودها لواجب الوجود، الذي هو منتهى الكمال والغنيّ بالذات، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١].

(١) سورة فاطر، الآية:١٥.

٢ - التفكّر في الآيات الإلهيّة: يرى القرآن الكريم أنَّ كلّ ظاهرة من ظواهر الكـون، تنطـوي على آيات تدلّ علــى الله تعالى وتعرّفنا بــه، ولذلك دعانا القرآن الكريم للتفكّر في الآيات الكونيّة، من باب أنَّ التفكّر فيها يساعدنا على الاندفاع والسير في طريق التكامل. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُـودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

٣ - العبـادة والعمـل الصالـح: إنَّ العبادة تـوأم الإيمان والمعرفـة، والعبادة والأعمال الصالحة تجعل الإيمان أكثر كمالاً، وكلّما أصبح أكثر كمالاً كلّما دنا من مقام القرب أكثر، فالعمل الصالح يرتقي بالإيمان عالياً حتّى ينال مقام القرب الإلهيّ.

يقول تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٢].

٤- الأذكار والأدعيـة: إنَّ الذكـر والأدعية من العبادة، وقد ورد التأكيد عليها كثيـراً فـي الآيات والروايـات، فعن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لمّـا أُسري بـي إلى السمـاء دخلـت الجنّـة، فرأيت ملائكة يبنـون لبنة من ذهـب ولبنة من فضّة، وربما أمسكوا، فقلت لهم: ما لكم ربما بنيتم وربما أمسكتم؟**

فقالوا: متى تجيئنا النفقة؟

فقلت لهم: وما نفقتكم؟

فقالوا: قول المؤمن في الدنيا : سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، فإذا قال بنينا وإذا أمسك أمسكنا»[٣].

(١) سورة آل عمران، الآية:١٩١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٣) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٩٣، ص١٦٩.

وعنه ﷺ أنَّه قال: «**من قال سبحان الله غرس الله بها شجرة في الجنّة. فقال رجل من قريش: يا رسول الله، إنَّ شجرنا في الجنّة لكثير، قال: نعم، ولكن إيَّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك أنَّ الله عزَّ وجلّ يقول:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[1]».

إنَّ كلّ كلام يكون مفهومه تمجيداً وتحميداً وتسبيحاً للّه تعالى يكون ذكراً، وإن كانت الأحاديث قد صرَّحت بأذكار خاصّة، كما أنَّه يوجد تأكيد على أذكار بعينها، فعن رسول اللّه ﷺ: «**سيّد القول لا إله إلّا اللّه**»[2]، لكن يمكن القول بما أنَّ الهدف من الذكر توجّه الإنسان نحو اللّه تعالى، ولا شكّ في أنّ من يرث الجنّة يكون قد فاز بمرتبة القرب من اللّه سبحانه. وكلّ ذكر يوصل إلى الهدف أكثر يكون أفضل بالنسبة لذاكره.

٢-من الأمور المساعدة على الوصول

ويوصي بعض أهل المعرفة بأمورٍ تساعد أيضاً على اجتياز الطريق وهي قسمين أفعال وتروك:

أوّلاً: غسل التوبة: قال تعالى:﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3].

ثانياً: أن يسعى ليرى نفسه في محضر اللّه تعالى، وأن يذكر اللّه في كلّ حال فلا يغفل عنه أبداً ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[4].

ثالثاً: أن يبقى دائم الوضوء ويصلّي صلاة الليل، ويكرّر ذكر: «**يا حيّ يا قيّوم يا من لا إله إلّا أنت**».

(٣) سورة محمد، الآية: ٣٣.

(٢) المجلسيّ، بحار الانوار، ج٩٠، ص٢٠٤.

(٣) سورة البقرة، الآية:٢٢٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٧٧.

رابعاً: أن يقرأ يوميّاً مقداراً من القرآن مع حضور القلب ويتفكّر ويتدبّر في معاني الآيات.

خامساً: أن يسجد كلّ يوم سجدة طويلة يكرّر فيها: «**لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين**».

سادساً: ترك الكلام الذي لا فائدة منه.

سابعاً: ترك ما زاد عن حدّه الطبيعي المعتدل من المأكل والمشرب ونحوه.

ثامناً: ترك معاشرة أهل السوء وكلّ من لا يقرّب من اللّه سبحانه.

تاسعاً: ترك كثرة النوم، ومحاولة الاستفادة من الوقت بما يرضي اللّه سبحانه.

ويمكنه أن يكرّر هذه الأمور لمدّة أربعين يوماً، لعلَّه تساعده على اجتياز الطريق بشكل أسرع وأفضل ليصل إلى درجة القرب من اللّه.

٣- موانع الوصول إلى اللّه

ثمَّة موانع في الطريق، وعلى السالك أن يجاهد نفسه لإزالتها، وإلَّا فلن يصل إلى هدفه، نذكر منها:

أ- المانع الأوّل: عدم قابليّة القلب: فالقلب الملوَّث بالمعاصي والذنوب لا يمكن أن تدخله ملائكة الرحمة، وبالمعصية تسير النفس وتتحرّك بعكس السير المطلوب، فلا بدّ من تطهير النفس من الذنوب والآثام بالتوبة منها، حتّى تصبح هذه النفس قابلة للسير إلى اللّه تعالى بتلقّي الفيوضات والإشراقات الإلهيّة.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء فإن**

تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»[1].

ب - المانع الثاني: التعلّقات الدنيويّة الماديّة: كالمال والثروة والبيت والجاه وسائر وسائل الحياة.

وهذه التعلّقات بالمعنى المتقدّم في حبّ الدنيا تكون رأس كلّ خطيئة، إن أنستنا، أنستنا ذكر الله ويوم الوقفة بين يدي الله تعالى للحساب.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أوّل ما عُصي الله تبارك وتعالى بستّ خصال: حبُّ الدنيا، وحبُّ الرياسة، وحبُّ النساء، وحبُّ الطعام، وحبُّ النوم، وحبُّ الراحة**»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يجد المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه حتّى لا يبالي من أكل الدنيا**»[3].

ج - المانع الثالث: إتباع هوى النفس وميولها وشهواتها: إنَّ من يسعى ليلاً نهاراً لإرضاء غرائزه وشهواته لا يستطيع أن يحلّق نحو مقام القدس الإلهيّ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أشجع الناس من غلب هواه**»[4].

د - المانع الرابع: الامتلاء بالأكل: لأنَّ هذا يمنع من العبادة والدعاء والتوسّل والتضرُّع.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا أراد الله صلاح عبده، ألهمَه قلّة الكلام وقلّة الطعام وقلّة المنام**»[5].

---

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص ٢٧٢.

(٢) المجلسيّ، بحار الانوار، ج٧، ص٩٤.

(٣) سورة ص، الآية:٢٦.

(٤) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٧، ص ٧٦.

(٥) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج ١٦، ص٢١٣.

وعن ابي عبد الله عليه السلام: «**إنَّ الله يبغض كثرة الأكل**»[١].

هـ - المانع الخامس: الكلام غير الضروريّ، وغير المفيد.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسّي القلب، إنَّ أبعد الناس من الله القلب القاسي**»[٢].

قال الإمام الرضا عليه السلام: «**من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إنَّ الصمت باب من أبواب الحكمة. إنَّ الصمت يكسب المحبّة، إنَّه دليل على كلّ خير**»[٣].

و- المانع السادس: حبُّ الذات: على السالك إلى الله أن يبدِّل حبَّ ذاته بحبّ الله، وأن يؤدّي كلّ أعماله بداعي الرضا الإلهيّ، فيأكل لأنَّ الله سمح له بدوام الحياة كما يصلّي لأنَّ الله أمر بذلك... وهكذا.

ز- المانع السابع: ضعف الإرادة: وعدم القدرة على التصميم، وهذا يمنع من البدء بالعمل، والشيطان يعمل جادًّا لإضعاف إرادتنا، فيصوّر عبر الوهم أنَّ العبادة صعبة، أو أنَّ السلوك إلى الله غير مطلوب، أو أنَّ المهمّ هو العبادة الصوريَّة الخالية من المضمون.

والحلّ هو بتقوية الإرادة التي تحتاج إلى جهاد وتضحية كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٤].



(١) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٢٤، ص٢٤.
(٢) م. ن، ج ٨، ص ٥٣٦.
(٣) الكليني الكافي، ج٢، ص١١٣.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

خلاصة الدرس

١ - توجـد عدّة طرق أساس يمكن للسالك أن يستفيد منها لنيل مقام القرب الإلهيّ.

٢ - التفكّر في البراهين يؤكّد حقيقة أنَّ كلّ الوجود مفتقر للّه تعالى.

٣ - التفكّر في الآيات الكونيّة يقود الإنسان إلى الله جلَّ شأنه.

٤ إنَّ الذكر من أهمّ العوامل التي تدفع بالإنسان في طريق التكامل.

٥ - العبادة تؤثّر في زيادة الإيمان وأثمار المعرفة.

من موانع الوصول إلى مقام القرب:

١- عدم قابليّة القلب الملوَّث بالمعاصي.

٢- التعلّق بالماديّات من مال وغيره.

٣ - إتّباع الهوى والشهوات.

٤- الأكل حتّى التخمة.

٥ - الثرثرة من غير فائدة.

٦ - حبُّ الذات والاقتصار على الملذّات الحيوانيّة.

٧ - ضعف الإرادة.

للمطالعة

وصيّة الملا محمّد تقيّ المجلسيّ

يمكن الاستفادة من وصايا بعض العلماء في هذا الموضوع، ومنها وصيّة الملا محمّد تقي المجلسيّ (رضوان اللّه تعالى عليه)، التي هي من أروع تلك الوصايا في هذا المجال، حيث ينقل عن أحد السالكين قوله: ما أخذته من مرحلة الرياضة وبناء النفس يعود إلى الوقت الذي كنت مشغولاً فيه بمطالعة التفسير. ذات ليلة رأيت النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وكنت بين النوم واليقظة. فقلت لنفسي: من المفيد أن أدقّق في كمالات وأخلاق النبيّ بشكل جيّد. كنت كلّما أدقّق أكثر أرى نورانيّته وعظمته تزداد، بحيث سطع نوره في كلّ مكان، عندها استيقظت (عدت إلى نفسي ووعيي) وجاءني إلهام يقول: خُلُق رسول اللّه القرآن ويجب أن أُكثِرَ الغوص فيه. كنت كلّما دقّقت في الآية أكثر انكشفت لي حقائق أكثر، حتّى دخلت على قلبي حقائق ومعارف جمّة، وكان ذلك دفعة واحدة. كلّما دقّقت في آية أنال تلك الموهبة. طبعاً يصعب تصديق هذا الأمر لمن لم يوفّق إليه، بل عادة يكون غير ممكن، لكن هدفي من هذا الكلام إرشاد الأخوة في اللّه.

قصص العلماء



الدرس
الثاني عشر

ذِكرُ اللّه



أهداف الدرس

١. أن يشرح الطالب حقيقة الذكر وأن يميّز أنواعه ومراتبه.
٢. أن يكتشف طرق ارتقاء الإنسان في مراتب الذكر.
٣. أن يزداد تعلّقاً بذكر الله من خلال معرفة آثاره.







تمهيد

ذِكرُ اللّه هو أحد الوسائل لتكميل النفس، ولسيرها نحو القرب من اللّه سبحانه، فإنَّ السير والسلوك إلى اللّه ينطلق من ذِكره تعالى، وإنَّ أكثر ما يساعد السالك على طيّ المسافات، هو المداومة على ذكره تعالى، ولذلك أكَّد القرآن الكريم على حقيقة الذكر، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في رسالة لأصحابه: «**وأكثروا ذكر الله ما استطعتم في كلِّ ساعة من ساعات الليل والنهار، فإنَّ الله أمر بكثرة الذكر، والله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين، واعلموا أنَّ الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلَّا ذكره بخير**»[2].

ولهذه الأهميّة قمنا بجعل درسٍ مستقلّ للذكر، بعد أن كان أحد أهمّ العوامل المساعدة على الوصول.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.

(٢) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٤، ص ١١٨٣.

١- ما المقصود من الذكر؟

لا بدّ أن نعرف ما هو الذكر، وما هي حقيقته؟ فهل هو مجرَّد الذكر اللفظيّ أم ماذا؟

كان فيما أوصى به رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الإمام عليّ عليه السلام: «**يا عليّ، ثلاث لا تطيقها هذه الأمّة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كلّ حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عزَّ وجلّ عنده وتركه**»[(١)].

لم يُرِد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم نفي كون هذه العبارات من ذكر اللّه تعالى، بل المراد في هذا الحديث الإشارة إلى تلك المرتبة الكاملة من الذكر، التي تعني أن يرى العبد ربَّه حاضراً وناظراً إليه، وأن يرى نفسه في محضره، فيمتنع عن معصيته، ويقدم على طاعته، ومن هنا أكَّدت الروايات على الذكر بمعنى التوجّه القلبيّ والحضور الباطنيّ، باعتبار كونه الفرد الأكمل من الذكر، وهذا يقود إلى الحديث عن مراتب ذكر اللّه تعالى.

٢- مراتب الذكر

للذكر مراتب كثيرة، تبدأ من الذكر اللسانيّ حتّى تصل إلى الإنقطاع إلى اللّه تعالى، وسنشير إلى بعضٍ منها:

المرتبة الأولى: أن يؤدّي الذاكر أوراداً خاصّة بقصد القربة؛ دون الإلتفات إلى معانيها.

المرتبة الثانية: أن يردّد الإنسان الأذكار بقصد القربة؛ مع الالتفات إلى معانيها.

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٩٣، ص ١٥١.

المرتبة الثالثة: أن يكون القلب متوجّهاً إلى اللّه تعالى؛ وهو يدرك معاني الأذكار، ثمَّ يأمر اللسان بالقيام بالذكر.

المرتبة الرابعة: أن يكون السالك متوجّهاً توجّهاً كاملاً إلى اللّه تعالى، فيرى اللّه حاضراً وناظراً، ويشاهد نفسه أنَّه في محضره تعالى، ولا يلتفت إلى شيء من ظواهر هذه الدنيا، لأنَّه وصل إلى مصدر الكمال فلا يرى غيره.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته الشعبانية: «**إلهي هبْ لي كمال الإنقطاع إليك، وأنرْ أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلَّقة بعزِّ قدسك**»[١].

٣- مراتب الكمال

تختلف أحوال السالكين في هذا المقام، فمنهم الكامل ومنهم الأكمل، ويكون الواحد منهم مأنوساً ومتعلّقاً باللّه، بنفس المقدار الذي قطع علاقته بغيره تعالى.

فعندما يتوجّه السالك إلى عظمة اللّه وجماله وكماله، تحدث لديه مقامات وأحوال روحيّة راقية:

أ - الذكر الدائم للّه تعالى.

ب - الإحساس بحضوره عزّ وجلّ.

ج - الأنس باللّه.

د- الإنقطاع إلى اللّه وترك ما سواه في سبيله.

هـ - محبّة اللّه والإشتياق إليه.

(١) مفاتيح الجنان.

و - الخوف من اللّه وحْدَه.

ز- الرضا بقضاء اللّه وقدره.

ج - المرحلـة التي لا يرى فيها سـوى اللّه عزّ وجلّ، ويغفل عن كلّ شيء سواه، وهو ما يسمّيه العرفاء بالفناء في اللّه، وهذا ما نجد التعبير عنه في الآيات والروايات، ونجدها أيضاً في أدعية المعصومين عليهم السلام الغنيّة بتلك المعاني الثمينة، والجواهر النادرة، التي لا يلتفت لعظمتها إلّا القليل من الناس: قال الإمام عليّ عليه السلام: «**ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت اللّه قبله وبعده ومعه**»[1].

وسُئل عليه السلام: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟

فقال عليه السلام: «**أفأعبد ما لا أرى؟!**».

فقال وكيف تراه؟

قال عليه السلام: «**لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان**»[2].

وتلك المراتب والمقامات والدرجات هي أمور حقيقيّة تعبّر عن مستوى من مستويات الوجود، ولها آثار نشير إلى بعضها:

٤- آثار الذكر

١- **الإلتـزام بطاعـة اللّه:** فإنَّ مـن وصل إلى مرحلة يشعـر فيها بشكل دائم بوجـود اللّه وحضوره عزّ وجلّ، ووجد نفسه في محضر اللّه، فسوف يدفعه ذلك إلى الالتزام بطاعة اللّه تعالى والعمل بأوامره.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**من كان ذاكراً للّه على الحقيقة فهو مطيع،**

(١) التبريزي الانصاري، اللمعة البيضاء، ص١٦٩.

(٢) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٩٩.

ومن كان غافلاً عنه فهو عاص»[1].

٢- **الخضوع والخشوع:** إنَّ من شاهد عظمة اللّه تعالى سيكون خاضعاً له منكسراً أمامه، خاشعاً لديه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: ومعرفتك بذكره لك، يورثك الخضوع والاستحياء والانكسار»[2].

٣- **عشق العبادة:** إنَّ من آثار الذكر الدائم للّه والإحساس بحضوره، التعلّق الشديد بالعبادة والالتذاذ بها، لأنَّ مَن أدرك عظمة اللّه ورأى نفسه في محضره، رجَّح لذّة المناجاة والتضرّع والتوسّل على أيّة لذّة أخرى.

٤- **السكينة والطمأنينة:** إنَّ الدنيا مليئة بالبلاء والآلام والأمراض، وهذه الأمور والخوف منها يسلبان الإنسان راحته وطمأنينته، إذا كان بعيداً عن ذكر اللّه، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[3].

أمّا عباد اللّه المخلصون، الذاكرون للّه، الذين تعلّقت قلوبهم بمصدر الكمال والخير، فإنَّهم لا يجزعون ولا يضطربون لفقد شيء من حطام هذه الدنيا، وهم في سكينة وطمأنينة عند نزول البلاءات الإلهيّة: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ﴾[4].

٥- **ذكر اللّه لعبده:** إذا ذكر العبد ربّه فإنَّ اللّه تعالى سيذكره ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[5]، ومعنى ذكره تعالى لعبده أنّه يصبح محلّاً لعنايته ورعايته ولطفه، عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**قال اللّه تعالى: إذا علمت أنَّ الغالب على**

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٩٣، ص ١٥٨.
(٢) م.ن.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

عبـدي الاشتغـال بـي، نقلـت شهوتـه فـي مسألتـي ومناجاتي، فـإذا كان عبـدي كذلك فـأراد أن يسهو حلـتُ بينه وبين أن يسهـو، أولئك أوليائي حقّاً، أولئك الأبطال حقّاً، أولئك الذين إذا أردت أن أُهلك الأرض عقوبةً، زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال»[1].

٦ - **محبّـة اللّه لعبـده:** مـن نتائـج الذكـر محبّـة اللّه لعبـده، عـن الإمام الصـادق عليه السلام: «**مـن أكثـرَ ذكـر اللّه أحبّـه اللّه**»[2].

٧ - **المعرفة**: قد يصل السالك الذاكر للّه إلى حيث يرى الحقائق والمعارف من خلال قلبه وعين بصيرته.

خلاصة الدرس

١ - حقيقة الذكر ليست مجرَّد حركة اللسان، بل هي التوجّه القلبيّ والحضور الباطنيّ الذي يؤدّي إلى تحريك اللسان.

٢- للذكـر مراتب عديدة، تبدأ من الأذكار اللسانيّة لتصل إلى الإنقطاع إلى اللّه والفناء فيه.

٣ - توجـد أحـوال عديـدة للسالك، ولكلّ حـال من تلك الأحـوال سبب يبعث عليه.

٤ - إنَّ تلك المراتب والأحوال والمقامات هي أمور حقيقيّة وواقعيّة.

٥ - للذكـر آثـار عديدة، كطاعة اللّه، والخضوع لـه، ومحبّة اللّه لعبده وذكره له، والطمأنينة.

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٩٣، ص ١٦٢.
(٢) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٤، ص ١١٨١.

قصص العلماء

نقل من خطّ الملّا محمّد باقر المجلسيّ قدس سره هذه العبارة: يقول العبد الخاطي محمّد باقر بن محمّد تقي: إنّني مررت في ليلة من ليالي الجمعة على أدعيتي، فوقع نظري على دعاء قليل اللفظ كثير المعنى، فقرّرت أن أقرأه في تلك الليلة وقرأته. وفي ليلة الجمعة المقبلة أردت أن أقرأ ذلك الدعاء وإذ بي أسمع صوتاً من سقف البيت: «**أيُّها الفاضل الكامل، لم يفرغ حتّى الآن الكرام الكاتبون من كتابة ثواب هذا الدعاء في ليلة الجمعة السابقة حتّى تقرأه مرّة ثانية**». وليُعلم أنَّ قراءة هذا الدعاء ذات ثواب عظيم في ليالي الجمعة وغيرها من الليالي وفي كلّ وقت، وهذا الدعاء هو: «**بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله من أوّل الدنيا إلى فنائها، ومن الآخرة إلى بقائها، الحمد لله على كلّ نعمة، واستغفر الله من كلّ ذنب وأتوب إليه، يا أرحم الراحمين**».

قصص العلماء





الدرس
الثالث عشر

مكارم الأخلاق



أهداف الدرس

١. أن يـدرك الطالـب ارتبـاط مـكارم الأخلاق بسرعـة السير والسلوك.

٢. أن يكتشف أهميَّة أن يكون الإنسان نافعاً للناس.

٣. أن يمتلك روحيّة خدمة الخلق.







تمهيد

إنَّ من أهمّ الطرق لتربية النفس والسير والسلوك ونيل مقام القرب، تربية الفضائل ومكارم الأخلاق في نفوسنا، وللفضائل الأخلاقيّة آثار جليلة في الدنيا والآخرة، ولذا أكَّدت عليها الآيات والروايات، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق**»[1].

وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنَّ أحبَّكم إليّ وأقربكم منّي يوم القيامة مجلساً، أحسنُكم خُلقاً وأشدُّكم تواضعاً**»[2].

وقد فصَّل المعصومون عليهم السلام الحديث عن حسن الخلق، فقد سُئل الصادق عليه السلام: ما هو حدّ حسن الخلق؟ قال عليه السلام: «**تلين جانبك، وتطيّب كلامك، وتلقى أخاك ببِشْرٍ حَسَنٍ**»[3].

من الأخلاق الاجتماعيّة

إنَّ الأخلاق الحسنة كثيرة وعديدة، وينبغي للسالك أن يهتمّ بها كلّها، لأنَّ

(١) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٠٦.

(٢) المجلسي، بحار الانوار، ج ٦٨، ص ٣٨٥.

(٣) م. ن، ج ٦٨، ص ٣٨٩.

لكلّ منها أثره وثماره، وعدم الاهتمام بها سيؤدّي إلى الحرمان من فوائدها، وسنبيّن بعض تلك الأمور الأخلاقيّة التي تعدّ ضروريّة في حياتنا الاجتماعيّة، لأنَّ العبادة لا تقتصر في الإسلام على الصلاة، والصيام، والحجّ، والزيارة، والذكر، والدعاء، ولا تنحصر بالمساجد والمعابد والمزارات، بل يعتبر القيام بالمسؤوليّات الاجتماعيّة والإحسان وخدمة عباد اللّه، إذا كان مع قصد القربة من أفضل العبادات، حيث يمكن أن يكون وسيلة لبناء وإكمال النفس والتقرّب من اللّه. فالسير والسلوك في الإسلام لا يستلزم الانزواء، بل يمكن أن يكون من خلال قبول المسؤوليّات الاجتماعيّة في وسط المجتمع، والتعاون في الخير والإحسان، والسعيّ في حوائج المؤمنين، وإدخال السرّور إلى قلوبهم، والدفاع عن المحرومين والمستضعفين، والاهتمام بأمور المسلمين، وقضاء حاجاتهم، وحلّ مشاكلهم، ومساعدة عباد اللّه؛ وكلّ هذه الأمور تعتبر في الإسلام من العبادات الكبيرة، وثوابها أكبر من عشرات الحجج المقبولة المبرورة.

١ - لين الجانب:

إنَّ هذه الصفة عظيمة، وهي تعبّر عن وصول الرحمة إلى قلب الإنسان، وقد وصف اللّه تعالى بها رسوله الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[١].

٢ - إدخال السرّور على المؤمن:

وهو من الأهميَّة بحيث أنَّ أهل البيت عليهم السلام قرنوا بين إدخال السرّور إلى قلب المؤمن وبين سرورهم، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنَّه أدخله عليه فقط بل واللّه علينا، بل واللّه على رسول اللّه** صلى الله عليه وآله وسلم»[٢].

(١) سورة آل عمران، الآية:١٥٩.

(٢) المشكيني، مسلكنا، ص ٣٧٢.

ومن أروع ما نجده في هذا المجال، وصيّة الإمام الصادق عليه السلام للنجاشيّ حيث يقول فيها: «**يا عبد الله إيّاك أن تخيف مؤمناً، فإنَّ أبي حدَّثني عن أبيه عن جدّه، من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله، يا عبد الله وحدّثني أبي عن آبائه عن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «نزل جبرئيل عليه السلام، فقال: من أدخل على أخيه المؤمن سروراً فقد أدخل على أهل بيت نبيّه عليهم السلام سروراً، ومن أدخل على أهل بيته سروراً فقد أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سروراً، ومن أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سروراً فقد سرّ الله، ومن سرَّ الله فحقيق على الله أن يدخله مدخله...**»[1].

٣ - الرفق والمداراة:

وقد وردت الروايات في الحثّ عليها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مداراة الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف العيش**»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**رأس العقل بعد الإيمان بالله عزّ وجلّ التحبّب إلى الناس**»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «**جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمّد ربُّك يقرئك السلام ويقول لك: دارِ خلقي**»[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنَّكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء**»[5].

وعنه عليه السلام: «**دار الناس تستمتع بإخائهم، وألقهم بالبشر تُمِت أضغانهم**»[6].

(١) الشيخ الأنصاري، المكاسب المحرمة، ج ١، ص ١٨١- ١٨٣.
(٢) الكليني، الكافي، ج٢، ص ١١٧.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج١، ص ١٣١.
(٤) الكليني، الكافي، ج٢، ص ١١٧.
(٥) المجلسي، بحار الانوار، ج ٦٨، ص ٣٨٣.
(٦) الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٨٦٥.

٤- الكلام الطيِّب:

إنَّ الكلام اللطيف مع الآخرين هو من مكارم الأخلاق، حتّى أنَّ الروايات قد فسّرت حسن الخلق به، كما مرَّ معنا في حديث الصادق عليه السلام.

٥ - الصفح عن الآخرين:

وهو من أعظم المكارم، فقد خاطب الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه بقوله: «**ألا أحدّثك بمكارم الأخلاق؟: الصفح عن الناس، ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً**»[1].

٦ - قضاء حاجة المؤمن:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الخلق عيال الله، فأحبّ الخلق إلى الله مَن نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سروراً**»[2].

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**تبسُّم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرف الأذى عنه حسنة، وما عبد الله بشيء أحبّ إلى الله من إدخال السرّور على المؤمن**»[3].

وقال الصادق عليه السلام: «**مَن سرّ مؤمناً فقد سرَّني، ومَن سرَّني فقد سرَّ رسول الله، ومَن سرَّ رسول الله فقد سرَّ الله، ومَن سرَّ الله أدخله جنّته**»[4].

وعنه عليه السلام: «**لَقَضاء حاجة امرىء مؤمن أحبّ إلى الله من عشرين حجّة، كلّ حجّة ينفق فيها صاحبها مائة ألف**»[5].



(١) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٠٠.

(٢) م. ن، ج٢ ص ١٦٤.

(٣) الكليني، الكافي، ج٢، ص ١٨٨.

(٤) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٧٤، ص ٤١٣.

(٥) الكليني، الكافي، ج٢، ص ١٩٣.

وعنه عليه السلام: **«مشي المسلم في حاجة المسلم خير من سبعين طوافاً بالبيت الحرام»**[1].

وعنه عليه السلام: **«إنَّ لله عباداً من خلقه يفزع العباد إليهم من حوائجهم، أولئك هم الآمنون يوم القيامة»**[2].

وعن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام كيف ينبغي أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس ممّن ليسوا على أمرنا؟ قال عليه السلام: **«تنظرون إلى أئمّتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنَّهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدّون الأمانة إليهم»**[3].

وقد وصفتها الروايات بالرحمة، وأنَّها تفرّج الهمّ يوم القيامة، وتيسّر الحوائج في الدنيا، وعن الصادق عليه السلام: **«إنَّ العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكِّل الله عزَّ وجلَّ به ملكين، واحداً عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربَّه ويدعوان بقضاء حاجته..»**[4].

وعنه عليه السلام: **«أيُّما مؤمن قصده أخوه في حاجة، أو مستجيراً به في بعض أحواله، فلم يعنه ولم يجره، وهو يقدر على ذلك، فقد قطع ولاية الله، وأيُّما مؤمن منع مؤمناً شيئاً ممّا يحتاج إليه، وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره، أقامه الله يوم القيامة مسودّاً وجهه، مزرقّة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، ويقال له: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثمَّ يؤمر به إلى النار»**[5].

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٧٤، ص ٣١١.

(٢) م.ن، ج٧٤، ص ٣١٨.

(٣) الكليني، الكافي، ج٢، ص ٤٦٤.

(٤) م.ن، ج ٢، ص ١٩٤.

(٥) م.ن، ج ٢، ص ٣٦٧.

وقد وردت في هذا الخصوص مئات الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمَّة الأطهار عليهم السلام:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**قال اللّه عزّ وجلّ: الخلق عيالي فأحبّهم إليّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم**»[1].

الإمام الخمينيّ قدس سره وخدمة الناس

يعتبر الإمام الخمينيّ قدس سره: «**أنَّ خدمة الناس والسعي في قضاء حاجاتهم، والعمل على رفع الحرمان عنهم، أحد أهمّ الوظائف التي ينبغي للمؤمنين أن يقوموا بها، بل إنَّه يعتبر خدمتهم خدمة للحقّ المطلق سبحانه وتعالى**».

وحيث إنَّ النفس الإنسانيّة تنزع إلى الشعور بالفضل والامتياز حينما تقوم بالإحسان وخدمة الناس، أو قد تنطلق في هذا العمل بهدف الحصول على مكاسب ذاتيَّة، كالشهرة، والسمعة، وكسب ودّ الناس، فإنَّه قدس سره يحذّر بشدّة من هذا وذاك، ويعتبر أنَّ الناس هم الذين ينبغي أن يكونوا في موقع المنَّة، لأنَّهم وفَّروا للآخرين وسيلة للتقرُّب إلى اللّه ونيل رضاه سبحانه.

يقول قدس سره في رسالته لابنه:

«**ما دمنا عاجزين عن شكره تعالى ونعمائه التي لا نهاية لها، فحبّذا أن لا نغفل عن خدمة عباده، فخدمتهم خدمة للحقِّ تعالى، ولو أنَّ الجميع منه.**

لا ترى لنفسك أبداً فضلاً على خلق اللّه حين تخدمهم، فهم الذين يمنُّون علينا حقَّاً بفضل كونهم وسيلة إلى اللّه جلّ وعلا، ولا تسعى لكسب الشهرة والمحبوبيَّة عن طريق الخدمة، فهذا بحدِّ ذاته حيلة من حبائل الشيطان الذي يوقعنا في شباكه.

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص ١٩٩.

واختر في خدمة عباد الله ما هو أكثر نفعاً لهم لا لك، ولا لأصدقائك، فهذا الاختيار علامة الصدق في الحضرة المقدَّسة لله جلَ وعلا».

ويقول قدس سره في موضع آخر: «**أيُّها المستضعفون، نحن مرتهنون لإحسانكم وإذا كنّا نليق فنحن خدَّامكم**».



خلاصة الدرس

١ - من أهمّ ما يساعد على نيل مقام القرب، تربية النفس على مكارم الأخلاق.

٢- لحسن الخلق ثمار كثيرة، منها أنَّها تثقل الميزان يوم القيامة.

٣ - على السالك أن يهتمّ بكلّ الأمور الأخلاقيّة، وخصوصاً ما يرتبط منها بمعاملة الآخرين.

٤ - ركَّزت الآيات والروايات على مفاهيم أخلاقيَّة عديدة، مثل لين الجانب، والمداراة وقضاء حاجات الناس والعفو عنهم.

٥ - ركز الإمام الخمينيّ قدس سره في وصاياه على قضاء حوائج الناس، وأنّها تعتبر خدمة للحقّ سبحانه، وتكون المنّة لهم لا لنا.



كان الآخوند الشيخ محمّد كاظم الخراسانيّ رحمه الله، إلى جانب نبوغه الباهر ومواهبه العظيمة، يتحلّى بسجايا أخلاقيَّة وصفات نبيلة متميّزة، كان مخالفاً لهواه، يتجنّب الترويج لنفسه، وكان يحبّ الحقيقة ويعشقها، وكان يقول: إنَّ تديّن أبنائي إنَّما يثبت لديّ إذا قلَّدوا غيري، لأنَّهم ما داموا يقلّدونني لا يمكنني أن أميّز هل دفعهم إلى تقليدي تشخيصهم غير المتحيّز للواجب والوظيفة الدينيّة، أم أنَّ أهواءهم هي التي دفعتهم إلى ترويج أمر والدهم.

كان هناك شخص يهاجمه في المحاضرات وعلى المنابر، فاحتاج ذات مرَّة إلى مال لتردّي أحواله الاقتصاديّة، فحضر عند الآخوند مع جماعة من مقلّديه قدس سره ومعهم مبلغ كبير من الحقوق الشرعيّة، فطلبوا منه بأن يسمح لهم بإعطاء المبلغ المذكور لذلك الشخص، فالتفت إليهم وقال: «**إنّي لأعجب منكم كيف أتيتم إليَّ ولديكم مثل هذا الشيخ الفاضل، ألا تعلمون أن يده بمنزلة يدي، وأنَّ ما تعطونه من سهم الإمام عليه السلام مهما كان مقداره موضع قبول من قبلي... قوموا وقدّموا له هذا المبلغ، وأنا أعطيكم إيصالاً به**». ثمَّ كتب الشيخ الآخوند أعلى الله مقامه الإيصال المتعارف ووشّحه بتوقيعه وسلَّمه إليهم.

وحاول أحدُ الحضور من أصحاب الآخوند أن ينبّهه على ماهيَّة ذلك الشخص، ظنّاً منه بأنّ الآخوند لا يعرفه، فأتى باسم شخصيّة علمية كان يعارض الآخوند في بعض تفاصيل حركته السياسيّة، وسأل ذلك الرجل عن حاله، وقد كان من أتباع تلك الشخصيّة، فبادر الآخوند وقال: «**لا حاجة إلى هذا السؤال فأنا التقيت بتلك الشخصيّة العلميَّة اليوم في أثناء الطريق وتعرَّفت على صحَّته، فهي ولله الحمد على ما يرام**».

ثمَّ لمَّا قام الرجل المذكور مع مرافقيه ليخرج من منزل الآخوند، نهض الآخوند رحمه الله وودَّعه إلى الباب احتراماً وتأدبّاً.

وفي اليوم الآخر حضرَ الرجل المذكور إلى منزل الآخوند وقال: مولاي أنا ممَّن أعارضكم، وبقيت أهاجمكم في محاضراتي وعلى المنابر، وأنتمّ مع ذلك تحسنون إليَّ!! فقال الآخوند قدس سره: «**أنا لم أجد في الكتب الفقهية أنَّ استحقاق شخص لأخذ الحقوق الشرعيّة مشروط بممالأة الآخوند الخراسانيّ ومودّته**».

قصص العلماء





الدرس
الرابع عشر

العمل الصالح وخير الأعمال



أهداف الدرس

١. أن يميّز الطالب بين مكارم الأخلاق والعمل الصالح.
٢. أن يتعرّف إلى أهميَّة الإخلاص ومراتبه.
٣. أن يعدّد مراتب حضور القلب.
٤. أن يعدّد العوامل المؤثِّرة في حضور القلب.





تمهيد

ممّا يساعد الإنسان على نيل مقام القُرب الإلهيّ، العمل الصالح، وهو يدفع بالنفس الإنسانيّة في طريق التكامل، يقول تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(١).

وقد أكَّد القرآن الكريم كثيراً على العمل الصالح، وأنَّه الوسيلة الوحيدة لسعادة الإنسان وتكامله، وهذا العمل إمَّا واجب أو مستحب، وقد حددت الواجبات كما حدّدت المستحبّات في الشرع الحنيف، ومن الواضح أنَّ الأهمَّ هو القيام بالواجبات، فإذا فرغ من الواجبات ينتقل إلى المستحبّات، فلا يمكن لشخص أن ينال مقام القرب إذا قصَّر في الواجبات، حتّى لو بذل جهوداً مضاعفة في المستحبّات، ومن هنا سوف نبدأ بالحديث عن الواجبات، ونشير إلى بعضٍ منها، ثمَّ نتحدَّث بعد ذلك عن بعض المستحبّات، لكن بما أنَّ الإخلاص في العمل مشترك بينهما، ويعدّ شرطاً أساساً للقرب، فسنتعرّض له ولمراتب العبادة أوّلاً.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

١ - الإخلاص

إنَّ مقام الإخلاص من أرفع المقامات، وله آثار جليلة جدّاً ذكرتها الروايات بالتفصيل، يقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما أخلص عبد أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[١].

وتلك القلوب المخلصة تصبح مواضع لنظر اللّه تعالى، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**أين الذين أخلصوا أعمالهم لله، وطهَّروا قلوبهم لمواضع نظر الله**»[٢].

وللإخلاص مراتب عديدة، أدناها أن يخلص المرء عباداته من الشرك والرياء والعجب، وأن يؤدّيَها للّه تعالى فقط، وهذا المستوى هو شرط لصحّة العبادة، فلا تكون العبادة صحيحة من دونه، ولا شكّ أنَّ نيّة المرء تؤثّر في مصيره يوم القيامة، يقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا عملت عملاً فاعمل لله خالصاً، فإنَّه لا يقبل من عباده الأعمال إلا ما كان خالصاً**»[٣]، ويقول الإمام الصادقَ عليه السلام: «**إنَّ الله يحشر الناس على نيَّاتهم يوم القيامة**»[٤].

٢- مراتب العبادة

ليست العبادة مرتبة واحدة، بل هي تختلف باختلاف نيَّة الذين يؤدّونها، وهم على فئات:

الفئة الأولى: الذين يعبدون اللّه تعالى خوفاً من عذابه.

الفئة الثانية: الذين يعبدون اللّه طمعاً في جنَّته.

هذه الأهداف لا تضرّ بالعمل، وهي توجب القرب الإلهيّ، وإن كان الذين لديهم هذه الأهداف لا تكون عبادتهم بمستوى الذين يقومون بها لأهداف أسمى.

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٧٠، ص ٢٤٢.
(٢) غرر الحكم، ص ١٠٢، ح ١٧.
(٣) المجلسي، بحار الانوار، ج٧، ص ١٠٣.
(٤) م.ن، ج ٧، ص ٢١٩.

الفئـة الثالثـة: وهم الذين يعبدون اللّه شكراً لنعمه، وهذا القصد هو أفضل من غيره، يقول الإمام عليّ عليه السلام : «**إنَّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجَّار، وإنَّ قوماً عبدوا الله رهبـةً فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوا اللّه شكراً فتلك عبادة الأحرار**» [(١)].

الفئـة الرابعـة: الذين يعبـدون اللّه تعالى لتربيـة أنفسهـم وتزكيتها، وهذا القصد لا يضرّ بإخلاص العمل.

الفئة الخامسة: الذين يعبدون اللّه تعالى لأنَّهم يعرفونه بأنَّه مفيض الخيرات والكمـالات، فهو أهل للعبادة وهـم يخشعون أمامه ويخضعون له ويحبّونه، لأنَّهم وجدوه جديراً بأن يُعبَد، وهؤلاء هم أفضل من غيرهم.

ولا بدّ من التأكيد على حقيقة هامّة وهي: أنَّ الجدَّ في العبادة يوصل الإنسان إلى الإخلاص، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : «**الإخلاص ثمن العبادة**» [(٢)]، وهنا يكمل الإيمان، فعنه عليه السلام : «**من أحبَّ لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فهو ممَّن يكمل إيمانه**» [(٣)].

٣-خير الأعمال

الصلاة هي من أفضل الأعمال الصالحة التي تدفع الإنسان في طريق القرب من اللّه تعالى، يقول الإمام الرضا عليه السلام : «**الصلاة قربان كلّ تقيّ**» [(٤)]، وفي حديث آخر له عليه السلام : «**أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد وذلك قوله تعالى:**«وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب»» [(٥)].

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٣.

(٢) غرر الحكم، ص ١٤، ح ٤٤.

(٣) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٤٨.

(٤) الكليني، الكافي، ج٣، ص ٢٦٥.

(٥) سورة العلق، الآية: ١٩.

والصلاة هذه هي الصلاة التي تُقبل فيها على اللّه، وتؤدّيها بشروطها، ويكون قلبك فيها حاضراً، ولذا سوف نتحدَّث عن حضور القلب في الصلاة.

٤- حضور القلب في الصلاة

الصلاة تركيب ملكوتيّ، وهي وسيلة الاتصال باللّه تعالى، والتضرّع له وذكره، وهي معراج المؤمن، وميزان قبول الأعمال، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وفي كلّ جزء من أجزائها سرّ إلهيّ، لكن بشرط أن يكون فيها روح وحياة، وروح الصلاة حضور القلب والتوجّه إلى اللّه والخشوع بين يديه، لأنَّ الصلاة بدون قلب، كالجسد من دون روح، فحضور القلب هو روح الصلاة، ومن دونه تكون الصلاة ميتة.

فعن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنَّ من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإنَّ منها لما يلفّ كما يلفّ الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها، وإنَّما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك»** [١].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«لا يقومنّ أحدكم في الصلاة متكاسلاً ولا ناعساً، ولا يفكّرن في نفسه فإنّه بين يدي ربِّه، وإنَّما للعبد من صلاته ما أقبل عليه منها بقلبه»** [٢].

وروي عن عليّ بن الحسين عليه السلام أنَّه صلَّى فسقط الرداء عن منكبيه، فتركه حتّى فرغ من صلاته، فقال له بعض أصحابه: يابن رسول اللّه سقط رداؤك عن منكبيك فتركته ومضيت في صلاتك؟ فقال عليه السلام: **«ويحك تدري بين يدي من كنت؟ شغلني واللّه ذلك عن هذا، أتعلم أنَّه لا يقبل من صلاة العبد إلّا ما**

(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٨٤، ص ٢٦.
(٢) م.ن، ج٨٤، ص ٢٣٩.

أقبل عليه؟»، فقال له: يابن رسول اللّه هلكنا إذاً، قال عليه السلام: «**كلا إنَّ اللّه يتمُّ ذلك بالنوافل**»[1].

٥- مراتب حضور القلب

لحضور القلب مراتب عديدة، نشير إلى بعضٍ منها بشكل مجمل:

الأولى: أن يكون المصلّي ملتفتاً في صلاته بالإجمال للّه تعالى، وإن لم يكن ملتفتاً لمعاني الألفاظ بالتفصيل.

الثانية: أن يلتفت المصلّي لمعاني الكلمات، فضلاً عن كونه متوجّهاً إلى أنّه يكلّم اللّه تعالى ويتضرّع إليه.

الثالثة: أن يصبح المصلّي عارفاً بحقيقة كلّ ذكر من أذكار الصلاة، فضلاً عن كونه ملتفتاً مع من يتكلَّم.

الرابعة: أن تدخل تلك المعارف إلى باطنه بشكل كامل، وهنا يكون اللسان تابعاً للقلب في أفعاله.

الخامسة: أن يصل المصلّي إلى مرتبة الحضور الكامل، فلا يرى غير اللّه ويغفل عن كلّ ما سواه.

٦- العوامل المؤثِّرة في حضور القلب

بمجرَّد أن يقف المصلّي للصلاة، حتّى تبدأ رياح الأفكار تأخذه يميناً وشمالاً، فكان من الضروريّ الإلتفات إلى أمور قد تكون مفيدة في حضور القلب:

١- **مكان الخلوة:** الأفضل للمصلِّي أن يختار مكاناً ليس فيه ما يلفت انتباهه عن التوجّه للّه تعالى، ويحاول ألَّا يلتفت إلى ما حوله من أمور تصرفه عن التوجّه له تعالى.

(١) م. س، ص ٢٦٥.

٢ - **رفع الموانع:** من قبيل إذا كان مضطرباً لجهة العطش، بأن يشربَ ثمَّ يصلّي، أو إن كان تعباً يرتاح ثمَّ يصلّي، وهكذا كلّ الأمور التي تمنعه عن التوجّه للصلاة، ولعلّ من أخطر الموانع التعلّق بأمور الدنيا، كالمال والجاه وغيرهما، لذلك على المصلّي أن يقطع علاقته بهذه الأمور، حتّى يسهل عليه حضور القلب والتوجّه نحو اللّه.

٣ - **تقوية الإيمان:** إنَّ توجّه الإنسان للّه تعالى يرتبط بمقدار معرفته، فمن يصل إلى أكمل الإيمان، ويتعرَّف على عظمة اللّه وقدرته، ويرى اللّه تعالى حاضراً، سيكون قلبه حاضراً لدى الصلاة.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**اعبد اللّه كأنَّك تراه، فإن كنت لا تراه فإنَّه يراك**»[(١)].

وعن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: إنِّي رأيت عليَّ بن الحسين عليه السلام إذا قام في الصلاة غشي لونَه لونٌ آخر، فقال لي: «**واللّه إنَّ عليَّ بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه**»[(٢)].

٤ - **ذكر الموت:** إذا التفت الإنسان إلى أنَّ الموت قد يأتيه في أيّ وقت، وأنَّ هذه الصلاة قد تكون آخر صلاة يصلّيها، فلن تكون صلاته كصلاة الغافلين، ولذا من المستحسن أن يتصوَّر المصلِّي أنَّ هذه الصلاة التي يصلّيها قد تكون آخر صلاة، وأنَّه لم يبقَ أمامه إلَّا هذه اللحظات لتختمَ صحيفة أعماله.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا صلّيت صلاة فريضة فصلِّها صلاة مودّع؛ يخاف أن لا يعود إليها أبداً، ثمَّ اصرف ببصرك إلى موضع سجودك، فلو تعلم**

(١) نهج الفصاحة، ص ٦٥.

(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٨٤، ص ٢٣٦.

من عن يمينك وشمالك لأحسنت صلاتك، واعلم أنَّك بين يدي من يراك ولا تراه»[1].

٥- **التهيّؤ والاستعداد للصلاة:** على المصلّي أن يتهيّأ للصلاة، فيقوم بكلّ ما ذكرناه قبل صلاته، ويبدأ بالأذان والإقامة، ويقرأ الأدعية الواردة في هذا المجال، ويقول: «**يا محسن قد أتاك المسيء**».. فإذا حصل الخشوع كبَّر تكبيرة الإحرام وشرع في صلاته.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا استقبلت القبلة فانسَ الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كلّ شاغل يشغلك عن الله، وعاين بسرّك عظمة الله، واذكر وقوفك بين يديه، يوم تبلو كلّ نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحقّ، وقف على قدم الخوف والرجاء، فإذا كبَّرت فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه، فإنَّ الله تعالى إذا اطَّلع على قلب العبد وهو يكبّر، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أتخدعني؟ وعزّتي وجلالي لأحرمنَّك حلاوة ذكري، ولأحجبنَّك عن قربي والمسارّة بمناجاتي**»[2].

(١) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٦٨٥.
(٢) م.ن، ص ٢٣٠.



خلاصة الدرس

١- العمل الصالح يوصل المرء إلى مقام القرب الإلهيّ.

٢- الإخلاص من أرفع المقامات، وآثاره عظيمة في الدنيا والآخرة وأدنى مراتبه شرط لصحّة العمل.

٣- للعبادة مراتب تختلف بحسب قصد وهدف الذين يقومون بها، أعلى مراتبها من يعبد الله تعالى حبّاً له ولأنّه أهل للعبادة.

٤ - الصلاة من أفضل الأعمال التي تقرّب العبد إلى الله تعالى، وهي التي تكون مع حضور القلب.

٥- لحضور القلب مراتب أعلاها أن يصلَ المصلّي إلى مرتبة الحضور الكامل.

٦- توجد عوامل عديدة مؤثّرة في حضور القلب، منها رفع الموانع، وذكر الموت، والتهيّؤ للصلاة.



للمطالعة

الصلاة هبة إلهيّة

إنَّ الصلاة تمثّل أعظم الفرائض في الميدان الأبديّ للبحث عن الحقيقة، والذي فُرض على الإنسان بل جُبل عليه وأكثرها تأثيراً، ولعلّ البعض تعرَّف على هذه الخصوصية من خلال الجهد الفرديّ نحو الكمال فقط، ولم يسمع بدورها في ميدان الجهاد الجماعيّ لمواجهة القوى الدنيويّة المناهضة، لذا يجب أن نعرف أنَّ الرجولة والثبات في المواجهات المختلفة، مرتبطة بكون القلوب والإرادات مليئة بالصفاء والتوكّل والثقة بالنفس والأمل بحسن العاقبة.

إنَّ الصلاة تمثّل النبع الفوَّار الذي يفيض بكلّ هذه، وفيوضات كثيرة أخرى على قلب وروح المصلّي، وتصنع منه إنساناً نقيّاً متفائلاً ثابت الإرادة والعزم.

وما جاء في القرآن بأنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ووصفت على لسان النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم بأنَّها معراج المؤمن، وقربان كلّ تقيّ، وفي كلمة واحدة أنَّها عمود الدين، ووصفها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنَّها «**قرّة عيني**» يجب أن يحثّنا إلى التأمّل والعمُق في فهم عظمة الصلاة.

طبعاً، يجدر بنا أن نعلم أنَّ الصلاة لا تعني التفوّه ببعض الكلمات، وأداء بعض الحركات، فلا تترتّب كلّ هذه الفيوضات والبركات على إيجاد أمواج صوتيّة، وأعمال بدنيّة، دون أن تبعث في هذا البدن روح الذكر والتوجّه. فروح الصلاة هي ذكر الله، والخشوع والحضور أمامه، وهذه الكلمات والأفعال التي فُرضت على المكلّف بالتعليم الإلهيّ، أفضل إطار لروحه، وأقرب الطرق لوصوله إلى المحلّ المقصود.

فصلاة بلا ذكر وحضور، كبدن بلا روح، وإطلاق لفظ الصلاة عليها وإن لم يكن على سبيل المجاز، لكن لا ينبغي أن يرتجى منها أثر وخاصيّة الصلاة أيضاً.

وقد ورد الحديث عن هذه الحقيقة في الآثار الدينية بعنوان «**قبول الصلاة**»، وهكذا ورد أنّه «**ليس لك من صلاتك إلَّا ما أقبلت عليه**».

إنَّ هذه الصلاة موهبة ليس لها بديل، ومنبع فيض لا يزول، نستثمرها لإصلاح أنفسنا أوّلاً، ومن نحبّ ثانياً، وهي بوابة مفتوحة إلى جنّة واسعة يسودها الصفاء، وأنَّه لَمِن المؤسف أن يقضي الإنسان عمره بجوار هذه الجنّة ولا يحاول أن يزورها، أو يدعوَ أحبَّاءه إليها، فقد أبلغ الوحي النبيَّ العظيم صلى الله عليه وآله وسلم: «**وأمُر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**». واليوم اعتبروا هذا الخطاب موجّهاً إليكم وقدّروا أهميّة الصلاة، هذه الحقيقة المقدّسة والدرّ الساطع الذي هو هبة إلهيّة لأمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكلّ منكم سهمه الخاصّ إزاء هذه الوظيفة.

فعلى الآباء والأمّهات هداية الأبناء بالقول والعمل نحو الصلاة. وعلى المعلّمين إرشاد طلّاب المدارس والجامعات نحو هذه الحقيقة الساطعة.

الإمام الخامنئيّ دام ظله



الدرس
الخامس عشر

النوافل وصلاة الليل



أهداف الدرس

١. أن يدرك الطالب وجه اللطف الإلهيّ بتشريع النوافل.

٢. أن يعدّد النوافل اليوميّة، ويذكر كيفيّة أدائها.

٣. أن يدرك أهميّة صلاة الليل وآثارها.







تمهيد

ذكرنا في الدرس الماضي أنَّ الصلاة هي أفضل وسيلة للسير والسلوك والتقرّب إلى الله سبحانه، هذا والصلوات إجمالاً تنقسم إلى قسمين: واجبة، ومستحبّة.

فالصلوات الواجبة هي الصلوات اليوميّة، وصلاة الآيات، وصلاة الميت، وصلاة الطواف الواجب، والصلاة التي تجب على الإنسان بنذر أو يمين أو عهد، وقضاء ما فات على الأب من صلاة واجبة، وهي واجبة على الابن الأكبر.

١ - النوافل اليوميّة

وأمَّا الصلوات المستحبّة فكثيرة أهمّها: النوافل اليوميّة، وهي أربع وثلاثون ركعة على الشكلّ التالي: نافلة الظهر ثماني ركعات، نافلة العصر ثماني ركعات، نافلة المغرب أربع ركعات، نافلة العشاء ركعتان من جلوس تعدّان بركعة، ونافلة الصبح ركعتان، صلاة الليل إحدى عشرة ركعة.

وقد ورد التأكيد في الأحاديث على أداء النوافل اليوميّة، وأنَّها مكملة للصلوات الواجبة، وأنَّ لها ثواباً وآثاراً في الدنيا والآخرة.

فعن ابي الحسن عليه السلام قال: «**صلاة النوافل قربان كلّ مؤمن**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ العبد لترفع له من صلاته نصفها أو ربعها أو خمسها، وما يرفع له إلّا ما أقبل عليه منها بقلبه، وإنّما أُمرنا بالنوافل ليتمّ لهم بها ما نقصوا من الفريضة**»[2].

وعنه عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى: ما تحبَّب إليّ عبدي بشيء، أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وإنّه يتحبّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته**»[3].

٢- أهميّة صلاة الليل

صلاة الليل من أهمّ النوافل التي لها أثر كبير في نيل مقام القرب الإلهيّ وتزكية النفس، فقد أمر تعالى بها نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ووعده عليها بالمقام الرفيع قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[4].

وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5].

وقد وصف الله تعالى عباده بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا



(١) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٧٨، ص ٣٦.
(٢) م. ن، ص ٢٨.
(٣) م. ن، ص٣١.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.
(٥) سورة السجدة، الآيتان: ١٦-١٧.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[1].

وقد حثَّت الروايات الشريفة على صلاة الليل، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«**إنَّ الله جلّ جلاله أوحى إلى الدنيا أن أتعبي من خدمكِ، واخدمي من رفضك، وإنَّ العبد إذا تخلّى بسيّدِه في جوف الليل المظلم، وناجاه أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال يا ربّ! يا ربّ! ناداه الجليل جلّ جلاله: لبيّك عبدي، سلني أعطك، وتوكّل عليّ أكفك؛ ثمَّ يقول جلّ جلاله لملائكته: ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلّى في جوف هذا الليل المظلم، والبطّالون لاهون، والغافلون ينامون، اشهدوا أنّي قد غفرت له**»[2].

٣- آثار صلاة الليل

ذكرت لصلاة الليل آثار كثيرة، من قبيل أنَّها تحسِّن الأخلاق، وتدر الأرزاق، وتذهب بالهمِّ، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**صلاة الليل تحسِّن الوجه، وتحسِّن الخلق، وتطيّب الريح، وتدرُّ الرزق، وتقضي الدين، وتُذهب بالهمّ، وتجلو البصر**»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**صلاة الليل مرضاة الربّ، وحبّ الملائكة، وسنَّة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وراحة الأبدان، وكراهية الشيطان، وسلاح على الأعداء، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وشفيع بين صاحبها وملك الموت، وسراج في قبره، وفراش تحت جنبه، وجواب مع منكر ونكير، ومونس وزائر في قبره إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كانت الصلاة ظلّاً فوقه، وتاجاً على رأسه، ولباساً على بدنه، ونوراً يسعى بين**

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٦٣-٦٤.
(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار، ج٨٤، ص ١٣٧.
(٣) م.ن، ج٨٧، ص ١٤٨.

يديه، وستراً بينه وبين النار، وحجّة للمؤمن بين يدي الله تعالى، وثقلاً في الميزان، وجوازاً على الصراط، ومفتاحاً للجنّة؛ لأنّ الصلاة تكبير، وتحميد، وتسبيح، وتمجيد، وتقديس، وتعظيم، وقراءة دعاء، وإنّ أفضل الأعمال كلّها الصلاة لوقتها» [١].

٤- كيفيّة صلاة الليل

صلاة الليل إحدى عشرة ركعة، تؤدّى ركعتين ركعتين، كصلاة الصبح، ثماني ركعات تؤدّى بنيّة صلاة الليل، وركعتان بنيّة صلاة الشفع، وركعة بنيّة الوتر، ولهذه الصلاة آداب وأدعية عديدة، تزيد في آثارها وفوائدها.

خلاصة الدرس

١- النوافل اليوميّة وسيلة من وسائل تزكية النفس والتقرّب إلى الله.

٢- صلاة الليل من أهمّ النوافل التي تؤدّي إلى مقام القرب الإلهيّ. ولذلك أمر تعالى بها نبيّه الكريم  ووعده عليها المقام المحمود.

٣- لصلاة الليل آثار جليلة، منها تحسين الأخلاق، ودرّ الأرزاق، ونيل المقام الرفيع يوم القيامة.

٤- صلاة الليل إحدى عشرة ركعة، تؤدّى ركعتين ركعتين، كصلاة الصبح، والركعة الأخيرة تؤدّى لوحدها.

(١) م. س، البحار، ص ١٦١.

زينب عليها السلام ليلة الحادي عشر من المحرّم

في ليلة العاشر من شهر محرَّم كانت زينب عليها السلام، وكان الحسين عليه السلام، كانت زينب عليها السلام وكان الجميع.. كلُّ شخص، وكلُّ شيء.. في ليلة الحادي عشر كانت زينب ولم يكن غير زينب، زينب سيّدة النساء.. في هذه الليلة كانت زينب هي الراعي، هي قائدة قافلة الأسرى وملجأ الأيتام.. رغم ثقل المصائب ومرارتها.. كانت زينب طوداً شامخاً واجهت المصائب ولم يرمش لها جفن.

تولَّت حراسة الأسرى، تولَّت جمع النساء والأطفال.. تولَّت تجميع الهائمين على وجوههم في الصحراء، تولَّت تمريض العليل الضعيف.. كانت الروح للأجساد التي فقدت الروح.. والبهجة للقلوب التي فقدت البهجة، والرمق للنفوس التي فقدت الرمق.

كانت تمضي مسرعةً من هذه الجهة إلى تلك.. تبحث عمَّن افتقدت.. كان ضربُ السياط يؤلمها..

وأشواك الصحراء تدميها.. إلَّا أنَّ زينب تبحث عن اليتامى.. كان كبدها يحترق ولكنّها تبحث عن اليتامى..

هذا الجسد الذي هدَّه الألم.. كان معجزة.. أثبتت زينب كفاءة منقطعة النظير، فلم يسقط طفل تحت حوافر الخيل.. ولا احترقت امرأة بالنار.. ولا ضاع طفل في تلك الليلة المشؤومة.

وبعد أن أنجزت زينب كلّ هذه المهامّ، واطمأنّت على سلامة الجميع، توجَّهت إلى اللّه، وانصرفت إلى العبادة، وصلَّت صلاة الليل. لقد كانت متعبة جداً، بحيث

أنَّها لم تستطع أن تصلّيها وقوفاً.. فصلَّت صلاة الليل من جلوس وتضرَّعت إلى الله تعالى وابتهلت.

كانت زينب إلهيّة.. والإلهيّون هكذا يواجهون المصائب ولا يرمش لهم جفن.. صابرين.. شاكرين.

سيماء الصالحين، ص١٨١



الدرس
السادس عشر

الجهاد والشهادة



أهداف الدرس

١. أن يدرك الطالب أجر ومقام الجهاد والشهادة.

٢. أن يعدّد بعض أهداف الجهاد الشخصيّة والاجتماعيّة.

٣. أن يذكر ميزة الجهاد.





تمهيد

إنَّ الجهاد لنشر الدين، وإعلاء كلمة التوحيد، ولمواجهة الظلم والفساد، من العبادات التي تبعث على تكامل النفس وتزكيتها، وتوجب القربة من اللّه تعالى، وقد أكّد القرآن الكريم كثيراً على الجهاد وأجره ومنزلته عند اللّه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١].

١- منزلة الشهيد

أكّد القرآن الكريم على فضل الشهداء ومكانتهم وأجرهم ونورهم، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢].

وهذه الآية تبيّن ذلك المقام الشامخ للشهداء، لأنَّ القرآن الكريم لا يصفهم فقط بكونهم أحياء، بل يبيّن أنّ لهم مقام «**العنديّة**» «**عند ربِّهم**» حيث يحيون في ذلك المقام، ويأتيهم رزقهم فيه، وينعمون بالأجر الوفير.

(١) سورة التوبة، الآيات: ٢٠-٢٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

إنَّ للشهيد منزلة عظيمة عند اللّه تعالى، وقد أشارت آيات عديدة وروايات كثيرة إلى منزلته، من قبيل أنَّه تغفر ذنوبه وتكفَّر عنه سيّئاته، ويكون له المقام الرفيع يوم القيامة، ويكون له أجره ونوره، يقول تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[1].

وفي حديث رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**للشهيد سبع خصال من الله:**

أوّل قطرة من دمه مغفور له كلّ ذنب.

والثانية: يقع رأسه في حجر زوجتين من الحور العين، وتمسحان الغبار عن وجهه وتقولان مرحباً بك، ويقول هو مثل ذلك لهما.

والثالثة: يكسى من كسوة الجنّة.

والرابعة: تبتدره خزنة الجنّة بكلّ ريح طيّبة أيّهم يأخذه معه.

والخامسة: أن يرى منزله.

والسادسة: يقال لروحه اسرحي في الجنّة حيث شئت.

والسابعة: أن ينظر في وجه الله[2] وإنّها لراحة لكلّ نبيّ وشهيد»[3].

٢- تجارة الجهاد

يشبّه القرآن الكريم القتال في سبيل الله والشهادة بالتجارة مع اللّه تعالى، إنَّها دعوة للجهاد بأسلوب يبيّن حقيقته، ويشير إلى نتيجته العظيمة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا

(١) سورة الحديد، الآية: ١٩.

(٢) المقصود أنّه ينظر إلى ألطاف الله سبحانه وتعالى وفيوضاته اللامتناهية، فيعيش بذلك آفاق الرحمة الإلهيّة الواسعة.

(٣) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٦، ص ٥٠١٠.

بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

إنَّها معاملة تجاريّة من أروع المعاملات، الطرف الأوّل هو اللّه تعالى الغنيّ عن العالمين، الطرف الثاني هم المؤمنون باللّه واليوم الآخر، والثمن: هو الجنّة الخالدة والمثمن، هو أنفس المؤمنين وأموالهم، ثمَّ يشير تعالى إلى نتيجة هذه المعاملة: «**ذلك هو الفوز العظيم**».

٣- أهداف الجهاد

الجهاد في سبيل اللّه عبادة كسائر العبادات، وله أهداف شخصيّة واجتماعية:

أوّلاً الهدف السامي للمجاهد: إنَّ الهدف من الجهاد قد يكون أمراً شخصيّاً، وقد يكون أمراً اجتماعيّاً.

أ - الهدف الشخصيّ: وهو الهدف الأسمى والأساس والذي يشترك فيه كلّ المجاهدين، متى كان هو رضا اللّه سبحانه وتعالى، فساحة المعركة هي من الأمكنة الخاصّة التي يكون المجاهد فيها قريباً من اللّه عزّ وجلّ، يقول الإمام الخامنائيّ دام ظله: «**ساحة القتال هي ساحة التعبّد، فلا تأثير فيها لأيّ عامل آخر حتّى للعقل، وإذا كنّا ملتفتين إلى هذه المسألة وجعلنا التقوى هدفنا والتحرّك لرضا اللّه غاية لنا عندها ستتحقّق كلّ أهدافنا**».

ب - الهدف الاجتماعيّ: وهو الهدف الذي يراد منه نشر راية الإسلام وإعلاء كلمة اللّه، والقيام للّه بحفظ حدوده وأحكامه وتعاليمه.

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

٤- الإيثار ميزة الجهاد

إنَّ المجاهد مستعدّ أن يضحّي بأغلى ما لديه في سبيل الوصول إلى هدفه، وهو القرب من اللّه تعالى والحصول على رضوانه، إنَّ روح المجاهد تضيق بعالم المادّة والماديّات، وهو يترك كلّ ما في عالم الدنيا من مغريات، إنَّه يريد الوصول سريعاً إلى اللّه تعالى ليصل إلى مقام اللقاء الخالد، فإنّك عندما تتحدّث عن الجهاد في سبيل اللّه تعالى، تتحدّث عن البذل والعطاء، حيث إنَّ المجاهد يعطي من وقته وحياته وراحته في سبيل اللّه تعالى، وهذا ما يسمّى بالبذل، ولو اقتضى أن يضحّي المجاهد بأكثر ممّا يبذل لنفسه صار هذا البذل يدعى إيثاراً، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

خلاصة الدرس

١- إنَّ الجهاد عبادة توصل إلى مقام القرب، وتبعث على تزكية النفس.

٢- للشهيد منزلة كبيرة عند اللّه تعالى، حيث وصل إلى مقام اللقاء، لقاء اللّه تعالى، ليبقى عنده ويرزق من رزقه.

٣- شبَّه القرآن الكريم الجهاد بالتجارة، حيث يبيع المؤمنون أرواحهم ليشتروا الجنّة.

٤- إنَّ المجاهد له أهداف سامية من جهاده، ولذا ينال المقام الرفيع.

٥- إنَّ المجاهد يؤثِر عالم البقاء على عالم الفناء، وهو يريد أن يترك الدنيا ليصل إلى آخرته.

(١) سورة الحشر، الآية:٩.

الدعاء المستجاب

«**اللّهمّ لا تردّني إلى أهلي وارزقني الشهادة**»، سمعت هذه الجملة من زوجها عمر بن الجموح، عندما لبس لامة حربه واتجه ليشترك مع المسلمين، ولأوّل مرّة، في معركة أحد، كانت المرّة الأولى التي يساهم فيها عمرو بن الجموح بالجهاد مع المسلمين، لأنَّه كان أعرجاً. وطبقاً للآية الكريمة ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1] فإنَّه كان معذوراً من الجهاد، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان له بنون أربعة يشهدون مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المشاهد، ولم يكن يظنّ أحد بأنّ عمرواً مع ما هو عليه من العذر الشرعيّ، يحمل سلاحاً ويلتحق بجيش المسلمين للاشتراك في هذه المعركة.

لهذا السبب أراد قومه أن يمنعوه فقالوا له: أنت رجل أعرج ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: أيذهبون إلى الجنّة وأجلس أنا معكم؟ ولمَّا لم يجد بدّاً من التخلّص منهم، ذهب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا رسول اللّه، إنّ قومي يريدون أن يحبسوني عن الجهاد والخروج معك، واللّه إنِّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة.

- أمَّا أنت فقد عذرك اللّه، ولا جهاد عليك.

- أنا أعلم يا رسول اللّه بأنَّ الجهاد غير واجب عليّ، ولكنّي مع ذلك أريد الذهاب.

(١) سورة النور، الآية: ٦١.

فقال النبيّ ﷺ لقومه: لا عليكم أن تمنعوه، لعلّ اللّه يرزقه الشهادة، فخلّوا عنه.

كان عمرو بن الجموح يحاربُ في الرعيل الأوّل، وهو يعرج في مشيته، وكان يقول: (أنا واللّه مشتاق إلى الجنّة) وكان ابنه يعدو في أثره حتّى قُتلا، بعد أن حاربا شوقاً للشهادة وزهداً في الحياة، وبعد أن خمدت نار الحربّ الشؤوم، عادت النساء وكانت عائشة مع من عاد منهنّ، وفي الطريق وقع نظرها على هند زوجة عمرو بن الجموح، وهي تقود بعيراً متّجهة جهة المدينة، فسألتها: عندك الخبر فما وراءك؟

خير، أمَّا رسول اللّه فصالح، وكلّ مصيبة بعده جلل، ردّ اللّه الذين كفروا بغيظهم.

- مَنْ هؤلاء القتلى؟

- أخي وابني وزوجي.

- إلى أين تذهبين بهم؟

- إلى المدينة لأدفنهم فيها.

قامت هند، وقادت بعيرها نحو المدينة، كان البعير يمشي متثاقلاً نحو المدينة، وأخيراً برك، فقالت عائشة: برك بعيرك لثقل ما حمل.

- لا، ليس لهذا السبب لأنّه قوي جدّاً ولربما حمل ما يحمله البعيران، يجب أن يكون هناك سبب آخر، وزجرته فقام، فلمَّا وجَّهت به إلى المدينة، برك مرّة أخرى، فلمَّا وجَّهته راجعة إلى أُحُد أسرع في مشيه، فما رأت (هند) هذا الوضع العجيب من بعيرها، رجعت إلى النبيّ ﷺ وقالت له يا رسول اللّه، إنّي وضعت جسد أخي وابني وزوجي على البعير، حتى أدفنهم في المدينة ولكن هذا الحيوان لا يقبل بالمسير إلى المدينة، ويتّجه بسرعة إلى أُحُد.

- فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الجمل لمأمور.

هل قال عمرو زوجك شيئاً عندما توجّه إلى أُحُد؟

عندها تذكرت هند وقالت: نعم يا رسول الله، إنّه لما توجّه إلى أُحُد، استقبل القبلة، ثمَّ قال: اللّهمّ لا تردّني إلى أهلي وارزقني الشهادة.

- لذلك لا يمضي الجمل نحو المدينة، إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يرجع هذا الجسد إلى المدينة، ثمَّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنَّ منكم يا معشر المسلمين من لو أقسم على الله لاستجاب له ومنهم زوجك عمرو بن الجموح.

بعد ذلك، أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بدفنهم في أُحُد فدفنوا، ثمَّ قال لهند: قد ترافقوا في الجنّة جميعاً عمرو بن الجموح بعلك، وخلاد ابنك، وعبد الله أخوك.

- يا رسول الله، ادعُ لي عسى أن يجعلني معهم.

مرتضى مطهري، قصص الأبرار، دار التعارف، ص ١٨٦





الدرس
السابع عشر

كتمان السـرّ



أهداف الدرس

١. أن يدرك الطالب أهميَّة كتمان السرّ.

٢. أن يحـذر مـن أخطـار إفشـاء الأسـرار علـى الأشخاص والمسيرة.

٣. أن يعمل على اكتساب ملكة كتمان السرّ وقلّة الكلام.







تمهيد

إنَّ كتمان السرّ من قضايا الأخلاق العمليَّة، التي ينبغي أن لا يُغفل عنها وعن أهميَّتها، من قِبَلِ المؤمنين الذين يهتمُّون بتربية أنفسهم وتزكيتها على مكارم الأخلاق.

إنّ كلّ سرّ يؤدّي إفشاؤه إلى مفسدة، سواء على المستوى الفرديّ، أم الاجتماعيّ، فهذا السرُّ يجب كتمانه من باب حرمة الإضرار بالنفس أو الآخرين أو إيذائهم، فلا يعطى هذا السرّ إلى من يمكن أن تترتّب على إعطائه له تلك المحاذير، ولا ريب في كون هذا الأمر سوف يؤدّي إلى المساعدة على نجاح المؤمنين في أعمالهم العامّة الاجتماعيّة والدينيّة، ممّا يؤدّي إلى توفير كثير من الأجواء والإمكانيّات والعوامل التي تساعد الكثيرين على الأخذ بسبيل التديّن، ما يعني التوجّه نحو بناء النفس وتهذيبها والسير في طريق القرب الإلهيّ.

١ - أهميّة الكتمان

أعطى المعصومون عليهم السلام للكتمان اهتماماً خاصّاً، فعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**استعينوا**

على قضاء حوائجكم بالكتمان»[1] وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **«سرّك أسيرك، فإن أفشيته صرت أسيره»**[2].

وعنه عليه السلام أيضاً: **«جمع خير الدنيا والآخرة في كتمان السرّ ومصادقة الأخيار، وجمع الشرّ في الإذاعة ومواخاة الأشرار»**[3].

٢- موارد الكتمان

توجد موارد كثيرة لكتمان السرّ، منها ما يتعلّق بالجانب الشخصيّ والعائليّ، ومنها ما يرتبط بالجانب السياسيّ والاقتصاديّ، ومنها ما يرتبط بالجانب الأمنيّ والعسكريّ، والجانب الدينيّ:

أ- الجانب الشخصيّ والعائليّ: ففيما يرجع إلى حياة الإنسان اليوميّة والعائليّة، والتي تبقى على حفظ بعض الأسرار الخاصّة، والخاضعة للتبدّل والتغيّر، فمن كتم سرّه أمكنه تجنب الأخطاء. فقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام قوله: **«من كتم سرّه كانت الخيرة بيده»**[4].

ب - الجانب السياسيّ والاقتصاديّ: وهو خاصّ بالعاملين في هذا المجال، وعليهم التحرّز من إفشاء أيّ معلومة يمكن لها أن تضرّ بمصالح المسلمين.

ج - الجانب الأمنيّ والعسكريّ: ولعلّه أكثر الموارد أهميّة لكتمان السرّ، لأنّ العدوّ يستفيد من المعلومات المفشاة بسرعة، ويلحق الضرر بالمسلمين.

د - الجانب الدينيّ: وهذا يرتبط بإفشاء بعض أسرار الدين، ممّا قد يستغلّه الأعداء للتشنيع على الدين والمسلمين.

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج ١، ص٦٣.
(٢) م.ن، ج٢، ص ١٢٨٢.
(٣) المجلسي، بحار الانوار، ج ٧١، ص ١٧٨.
(٤) م.ن، ج ٧٢، ص ٦٩.

٣- عمَّن نكتمْ السرّ؟

إنَّ كتمان السرّ يجب أن يكون عن:

١ - الأعداء: ومنهم المنافقون، فعن الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «**كن من عدوّك على أشدّ الحذر**»[١].

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ : «**لا تشاور عدوّك واستره خبرك**»[٢].

٢ - الأصدقاء: الذين لا مصلحة ضروريّة في معرفتهم بالسرّ.

فعن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ : «**لا تطلع صديقك من سرّك إلّا على ما لو اطّلع عليه عدوّك لم يضرّك، فإنَّ الصديق قد يكون عدوّاً يوماً ما**»[٣].

وعن عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «**ليس كلّ مكتوم يسوغ إظهاره لك، ولا كلّ معلوم يجوز أن تعلمه غيرك**»[٤].

٤- فوائد كتمان السرّ

لكتمان السرّ فوائد عديدة تربويّة وعملانيّة نشير إلى بعضها:

أ - إنَّه عامل مهمّ في تحقيق النصر: فعن عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «**الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار**»[٥]. كما أنَّ انتشار السرّ فيه مخاطر عديدة، فقد جاء عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أنَّه قال: «**أما والله ما قتلوهم بأسيافهم ولكن أذاعوا عليهم وأفشوا سرّهم فقُتلوا**»[٦].

(١) غرر الحكم، حديث ٩٤٩٩.

(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص ٥٢١.

(٣) موسوعة الاستخبارات والأمن، ج٣، ص٢٩٤.

(٤) نهج البلاغة، حكمة ٨٥٩.

(٥) م. ن، حكمة ٤٨.

(٦) الكليني، الكافي، ج٢، ص ٣٧١.

ب - الحفاظ على التوازن المعنويّ للمجتمع: لأنَّ إفشاء الأسرار قد يؤدّي إلى إيجاد حالات من البلبلة في المجتمع، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[1].

٥- دوافع إفشاء السرّ

توجد دوافع كثيرة قد يكون أحدها أو بعضها السبب لإفشاء السرّ.

منها: الجهل، وعدم الوعي بعواقب الأمور، والثقة العمياء بالآخرين، أو الضعف في تقوى الله عزّ وجلّ، فقد ذكرنا أنَّ إفشاء السرّ قد يترتّب عليه أمور عديدة هي في واقعها حرام كالإضرار بالآخرين، والإيذاء وهتك الحرمات. وهذه الأمور فيما لو حصلت والعياذ بالله، سيكون من نتائجها الابتعاد عن ساحة القرب الإلهيّ، وملء صحيفة الأعمال بأشدّ الذنوب التي تسوّد القلب وتسخط الربّ.

من هنا كان على الإنسان المؤمن الذي يهتمّ بتربية نفسه، وبناء شخصيّته، أن يراعي مسألة حفظ اللسان عن المحرّمات، والتي من أبوابها عدم مراعاة كتمان السرّ، وقد أشار الإمام الصادق  إلى بعض موارده حيث قال:

«**لا ترموا المؤمنين ولا تتبّعوا عثراتهم، فإنَّ من يتّبع عثرة مؤمن يتّبع الله عزّ وجلّ عثرته، ومن يتّبع الله عزّ وجلّ عثرته يفضحه في بيته**»[2].

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٢) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج ٩، ص ١٠٩.



خلاصة الدرس

١- يجب كتمان السرّ عن كلّ من يؤدّي إفشاؤه أمامه إلى مفسدة.

٢ - كتمان السرّ من أهمّ مواصفات الإنسان المتّقي.

٣ - أكّدت الآيات والروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام كثيراً على ضرورة كتمان الأسرار العسكريّة والأمنيّة وغيرها.

٤ - لكتمان السرّ فوائد كثيرة؛ منها أنّه يساعد على تحقيق النصر وعلى حفظ التوازن المعنويّ في المجتمع.

٥ - توجد دوافع عديدة لعدم مراعاة كتمان السرّ أهمّها ضعف الجانب التقوائيّ في الشخصيّة.

غزوة مكّة

عن محمّد بن جبير بن مطعم في قصّة فتح مكّة قال:

لمَّا ولَّى أبو سفيان راجعاً، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة: جهّزينا وأخفي أمرك! وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللّهم خذ على قريش الأخبار والعيون حتّى نأتيهم بغتة**».

ويقال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللّهم خذ على قريش أبصارهم فلا يروني إلَّا بغتة، ولا يسمعون بي إلَّا فجأة**».

قالوا: وأخذ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بالأنقاب، فكان عمر بن الخطاب يطوف على الأنقاب قيّماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمرّ بكم تنكرونه إلَّا رددتّموه، وكانت الأنقاب مسلمة، إلَّا من سلك إلى مكّة فإنَّه يتحفّظ به ويسأل عنه أو ناحية مكّة.

قالوا: فدخل أبو بكر على عائشة وهي تجهّز رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، تعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً وتمراً، فقال: يا عائشة، أهمّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بغزو؟ قالت: ما أدري.

قال: إن كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم همَّ بسفر فأذنينا نتهيّأ له.

قالت: ما أدري. لعلَّه يريد بني سليم، لعلّه يريد ثقيفاً. لعلّه يريد هوازن! فاستعجمت عليه حتّى دخل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال له أبو بكر: يا رسول اللّه، أردتَ سفراً؟ قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: نعم. قال: أفأتجهز؟ قال: نعم. قال أبو بكر: وأين تريد يا رسول اللّه؟ قال: قريشاً، وأخفِ ذلك يا أبا بكر! وأمر رسول اللّه بالجهاز، قال: أوليس بيننا وبينهم مدَّة؟ قال: إنّهم غدروا ونقضوا العهد، فأنا غازيهم. وقال لأبي بكر: أطوِ ما ذكرتُ لك! فظانٌّ يظنّ أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يريد الشام. وظانٌّ يظنّ ثقيفاً، وظانٌّ يظنُّ هوازن.

ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٧، ص٢٦٥



الدرس
الثامن عشر

النظم والانضباط



أهداف الدرس

١. أن يتعرّف الطالب إلى أهميَّة الانضباط ومراعاة الأنظمة.
٢. أن يمتلك دواعي نظم الحياة الخاصّة والعامّة.
٣. أن يكتسب ملكة الانضباط والالتزام بأوامر القيادة بقنواتها.







تمهيد

إنَّ التكاليف الإلهيّة كما قد تتوجّه إلى أفراد المؤمنين، فإنّها قد تتوجه إلى جماعة المؤمنين؛ فهناك مجموعة من التكاليف تتوجّه إلى مجتمع المؤمنين، كإقامة العدل والدفاع عن الإسلام..

وهنا إذا أراد المؤمنون أن ينجحوا في أعمالهم، ويصلوا إلى أهدافهم، لا بدَّ لهم من مراعاة مجموعة من العوامل والشروط التي تعدّ أساسيّة للنجاح في أعمالهم الإداريّة والاجتماعيّة..

ومن أهمِّ تلك العوامل هو نظم الأمر والانضباط أثناء العمل.

إنَّ الإسلام كما يريد للفرد أن ينجح في أعماله، ويستقيم في أموره، وأن يجهد في تزكية نفسه، ليصل إلى مقام القرب، فإنَّه يؤكّد على الأخذ بتلك الأسباب السياسيّة والإداريّة التي يكون لها نتائج ترتبط بنجاح الأهداف الكبرى والعامّة لمجتمع المؤمنين.

إنَّ نظم الأمر وتنظيم شؤوننا وحسن الإدارة، يجب أن يشمل جميع مجالات حياتنا، سواءً منها الفرديّة أم الاجتماعيّة، ولا نستطيع أن ننظّم أمورنا العامّة إذا لم ننجح في تنظيم أمورنا الفرديّة، وقد اعتنى الإسلام بكلّ هذه المجالات ابتداءً من

استغلال الوقت، إلى الاستفادة من كلّ الطاقات التي منحها الله تعالى للإنسان.

١- التقوى ونظم الأمر

إنَّ التقوى شرط أساس، لكنّها لا تكفي لوحدها حتّى ننجح في أعمالنا العامّة وإداراتنا، بل لا بدَّ من مراعاة جملة من الأمور التي ترتبط بالتدبير وحسن الولاية ونظم الأمر. يقول أمير المؤمنين عليه السلام لولديه الحسن والحسين عليهما السلام: «**أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم**»(١).

وهنا يجب التأكيد على العلاقة الوثيقة بين التقوى ونظم الأمور، وعلى الحاجة إليهما معاً، لأنَّ الاعتماد على أحدهما دون الآخر لن يوصلنا إلى المطلوب، ولحساسيّة هذا الموضوع وأهميَّته، تصدّى القرآن له، وبيَّن التنظيم الدقيق، سواء في المجال التكوينيّ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٢) أم في المجال التشريعيّ والسياسيّ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للقرآن: «**ألا إنَّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم**»(٣).

٢- النظم في سيرة المعصومين عليهم السلام

إنَّ الذي يقرأ السيرة الحياتيّة للمعصومين عليهم السلام، ولعلمائنا الأعلام، يرى دقّة التنظيم في حياتهم، وحرصهم على الاستفادة من كلّ الإمكانيّات والطاقات للقيام بالواجبات الإلهيّة، إنَّ تنظيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للحياة السياسيّة والاجتماعيّة، حتّى مع اليهود في المدينة، خير شاهد على هذا الأمر، إنَّ التنظيمات الإداريّة الرائعة التي برزت في دولة الحقّ والعدل التي أقامها أمير المؤمنين عليه السلام، مثال

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٧٧.
(٢) سورة يس، الآية: ٤٠.
(٣) نهج البلاغة، خ ١٥٨.

واضح أيضاً، ولنرجع إلى عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر (رضوان اللّه عليه) عندما ولَّاه مصر، لنلحظ روعة التنظيم في فكر الإمام عليه السلام، وكما ينقل عن الإمام الخمينيّ قدس سره دقّة تنظيمه لأوقاته ولأموره، وقد تجلَّى نظم الأمر، الذي اهتمّ به الإمام اهتماماً بالغاً في قيادته للأمّة، في مرحلة الثورة وفي مرحلة الدولة أيضاً.

ويتجلّى نظم الأمر في الموارد الماليّة، كما يتجلّى في صرف الوقت والجهد، حيث دعا الإسلام إلى صرف كلّ قرش في مورده المقرّر شرعاً، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام عندما أتاه أحد أصحابه وهو في بيت المال، ولمّا أراد أن يسأل الإمام عليه السلام عن بعض الأمور، توجّه إليه الإمام قائلاً: بأنَّ ما تريد أن تسأل عنه هل هو أمر من أمور المسلمين أم هو أمر شخصيّ؟ ولمّا أجابه بأنّه أمر شخصيّ، قام الإمام عليه السلام بإطفاء السرّاج الذي هو ملك لبيت المال.

إنَّ كلّ هذه المسائل تدخل في مفهوم حسن الولاية الذي أكّدت عليه الروايات، بل وتضمنته الأدعية، لأنَّه مفهوم يمتلك بعداً تربويّاً معنويّاً، فضلاً عن بعده العمليّ، وممّا تضمنته بعض الأدعية، كدعاء مكارم الأخلاق، فقد ورد فيه: «**وسمني حسن الولاية**» [1] ولخطورته فقد استعاذ الإمام زين العابدين عليه السلام من مقابله إذ يقول: «**اللّهمّ إنّي أعوذ بك من سوء الولاية لمن تحت أيدينا..**»[2].

٣- النظم في التشريع الإسلاميّ

وهنا نشير باختصار إلى بعض قوانين الإسلام في عالم النظام والانضباط، تشمل مختلف أبعاد حياة الإنسان:

---

(١) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق، ص ١١٠.

(٢) م. ن، ص ٥٧.

أ - في العبادة

النظام والانضباط في العبادة؛ يعني الاعتدال الذي تفيد مراعاته في استمرارها ودوامها.

وهو أيضاً البعد عن الإفراط والتفريط؛ الذي يؤدّي إلى التعب والنفور وقساوة القلب.

فينبغي أن يرفق الإنسان بنفسه حال الإتيان بالعبادة، فيؤدّيها بحسب قابليّته واستعداده النفسيّ.

عن الرسول ﷺ: «**إنَّ هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة**»[2].

فالإتيان بالعبادة ينبغي أن يصاحبه رغبة وميل، لأنَّ إلزام النفس بكثرة التكاليف العباديّة المستحبّة يثقل عليها، ممّا يسبّب حالة من النفور والفرار من العبادة، حتّى يحمل الإنسان نفسه عليها حملاً، قد يؤدّي به الأمر إلى تركها من الأساس، مع ما يصاحبه من إحساس بالتقصير والبعد عن الله.

ب - في الحياة الشخصيّة

يهتمّ الإسلام برعاية النظام والعدالة في حياة الفرد المسلم، بما يشمل مختلف شؤونه الحياتيّة، ومنها:



(١) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٨٦.

(٢) م.ن، ج ٢، ص ٨٦.

١ - النظافة:

عن رسول اللهﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله طيّب يحبّ الطيّب، نظيف يحبّ النظافة**»[١].

وقالﷺ: «**تنظَّفوا بكلّ ما استطعتم، فإنَّ الله تعالى بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنّة إلّا كلّ نظيف**»[٢].

وصحيح أنَّ الاهتمام الأكبر ينبغي أن يتوجّه إلى تنظيف القلب الذي هو الأساس: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[٣]. غير أنَّ الإسلام اهتمّ برعاية النظافة والصحّة في الهيئة واللباس، باستعمال المشط والسواك والتطيّب والتزام حسن الظاهر.

٢- الترتيب:

أولى الإسلام الترتيب وحسن الهيئة اهتماماً في تعاليمه الأساسيّة، فعن جابر بن عبد الله قال: أتانا رسول اللهﷺ فرأى رجلاً شعثاً قد تفرَّق شعره، فقالﷺ: «**أَمَا كان يجد ما يسكّن به شَعْرَهُ**»[٤].

وكانﷺ كلّما أراد الخروج إلى المسجد، أو لزيارة بعض أصحابه، ينظر في المرآة، أو في صفحة من الماء الصافي، فيمشط شعره، ويرتّب ثيابه، ويتعطَّر ثمَّ يقولﷺ: «**إنَّ الله يحبُّ من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمَّل**»[٥].

فالإسلام يريد للإنسان المؤمن أن يظهر في مجتمعه على أكمل وجه، وأحسن

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٣٣٠٢.
(٢) م.ن، ج ٤، ص ٣٣٠٣.
(٣) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ٢٦٥.
(٤) الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٣٣٠٢.
(٥) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج ٥، ص ١١.

صورة ليعكس، إلى جانب سلوكه العمليّ، حضارة هذا الدين وكماله.

٣ - الاعتدال في المصرف:

ينبغي مراعاة حدّ الاعتدال والتوازن، وعدم الإفراط والإسراف، في موارد الطعام والشراب واللباس، وشؤون الحياة وزاد السفر والحضر...

والتنظيم في المصرف يعني وضع برنامج محاسبة دقيقة لموارد الدخل والإنتاج والمصروف، وموارد الإسراف والتبذير، حيث يتمّ اجتناب الفوضى التي تؤدّي إلى الضياع والفقر.

فقد ذمَّ اللّه سبحانه وتعالى المبذّرين والمسرفين في كتابه العزيز، بقوله: ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٢].

وفي حديث للإمام العسكريّ عليه السلام يقول فيه: «**إيّاك والإسراف فإنّه من فعل الشيطنة**»[٣].

وهذا التأكيد على التنظيم في المصرف لا يقف عند حدود الحياة الشخصيّة، بل يطال أيضاً موارد الأموال العامّة وبيت مال المسلمين.

فالحكومة تستطيع أن تخطو في إدارة المجتمع خطوات واسعة إلى الأمام، إذا جعلت لمصارفها برنامجاً وتخطيطاً مدروساً، يقوم على أساس الاحتياجات الضروريّة لأبناء المجتمع.



(١) سورة الإسراء، الآيات: ٢٦-٢٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٣) المجلسي، بحار الانوار، ج ٥٠، ص ٢٩٢.

ج - في العلاقات الاجتماعيّة

١- تنظيم الوقت:

أحد عوامل توفيق الإنسان في علاقاته وأموره الاجتماعيّة هو الاستفادة الصحيحة من الوقت، وتنظيم برنامج الأعمال والمطالعات واللقاءات وغيرها. وتجنّب الفوضى التي تؤدّي إلى الحرمان من كثير من الفرص والندم عليها.

ففي وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام الأخيرة لولديه يقول: «**أوصيكما وجميع أهلي وولدي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم**»[(١)].

فبقدر ما ينظم المرء أوقاته على الأعمال، بقدر ما يوسّع على نفسه ليجد متّسعاً من الوقت، لم يكن ليحصل عليه لولا هذا الأمر.

وقد قسَّم الإمام الكاظم الأوقات إلى أربعة فقال عليه السلام: «**اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان الثقاة الذين يعرّفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذّاتكم في غير محرّم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات**»[(٢)].

٢ - العهود والعقود:

من مظاهر النظام في الإسلام أيضاً العمل بمقتضى العهود والعقود وتنفيذها بدقّة، حتّى يتمّ قطع طريق الإنكار وبروز الاختلافات فيما بعد. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[(٣)].

---

(١) م. ن، ج ٤٢، ص ٢٥٦.

(٢) المجلسي، بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٣٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

وفي آية أخرى تأكيد على الوفاء بالعهد: ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفِ إذا وعد**»[2].

هذا الاهتمام بضرورة الالتزام بالوفاء بالعهد مطلوب، حتّى مع غير المسلمين ولو كان عدوّاً، وفي ذلك يشير أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر، بقوله: «**وإنْ عَقَدْتَ بينَكَ وبينَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً أوألبستَهُ منكَ ذِمَّةً فحُط عَهدَكَ بالوفاء وارعَ ذمّتك بالأمانة**»[3].

وإذا كان هذا الحال مع الأعداء، فإنَّ الرعية أولى بالوفاء بالعهد بل والإحسان والعطف، وفي ذلك يتابع أمير المؤمنين عليه السلام قوله لمالك الأشتر: «**وَأَشْعِرْ قلبَكَ الرَّحْمَةَ للرَّعيَّة والمَحَبَّةَ لهُمْ واللُّطْفَ بِهِمْ، ولَا تكُونَنَّ عليهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغتَنِمُ أكلَهُمْ، فَإِنَّهُم صِنْفَانِ: إمَّا أخٌ لكَ في الدين، وإمَّا نَظيرٌ لكَ في الخَلقِ**»[4].

د- الحرب وشؤونها

إنَّ التزام النظام، والانضباط في الحرب، يشكّل عاملاً مهمّاً من عوامل النصر المضافة إلى العوامل الأخرى، كالإيمان بالله، والتوكّل عليه، وتدبير القيادة ووحدتها، والالتزام بالأوامر والنواهي القيادية..

وهذا التنظيم واجب في التدبيرين النظريّ والعمليّ في جهاز الدعم في ساحة الجهاد، وفي ترتيب صفوف الجند والوحدات العسكريّة، وكذلك في توقيت الهجوم والإنسحاب، حتّى فترات الإستراحة، وذلك لئلّا يضيع الكثير من الجهود ويؤدّي ذلك إلى الهزيمة.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.
(٢) الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٣٦٤.
(٣) نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٦.
(٤) م.ن، ج ٣، ص ٨٤.

وقد كانت سيرة الرسول ﷺ كذلك في حروبه، فهو ﷺ قبل دعوته للتعبئة العامّة كان يجمع الأفراد، ويكلّف كلّ شخص بتكليف معيّن لا يتعدّاه لغيره. ومن لوازم النظام التزام العناصر بأوامر القادة، وعدم تخلّفهم أبداً عن ذلك، وبعدهم عن القرارات الذاتيّة، والانفعالات العاطفيّة وغيرها، من الأمور التي قد تؤدّي إلى الهزيمة.

وفيما يتعلّق بالاهتمام بالنظام حتّى في فترات الإستراحة وأخذ الإجازات يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وهكذا ينبغي للمجاهد أن يجعل أمر النظام والانضباط في الحرب بكلّ شؤونها نصب عينيه، وموضع اهتمامه، حتّى يتحقّق النصر والعزّة للإسلام والمسلمين بعون اللّه تعالى.

(١) سورة النور، الآية: ٦٢.



خلاصة الدرس

١ - إنَّ مراعاة نظم الأمر والانضباط ممّا يساعد على نجاحنا في أعمالنا.

٢ - ممّا لا شكّ فيه أنَّ نجاح المؤمنين في أمورهم سوف يوجد ظروفاً مناسبة وإمكانيّات جيّدة للعمل، في سبيل تزكية النفس وتهذيبها.

٣ - إنَّ نظم الأمر ممّا أكّدت عليه الوصايا والروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام.

٤ - من يقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمَّة عليهم السلام والإمام الخمينيّ قدس سره يرى بوضوح أروع آيات النظم والانضباط.

٥ - إنَّ حسن الولاية الذي أكّدت عليه الروايات والأدعية يقتضي نظم أمورنا، في العبادة وفي الحياة الشخصيّة وفي العلاقات الاجتماعيّة وفي مجالات الحرب وشؤونها.

مخالفة التكليف

كان في «**جبل أُحُد**» شِعب (ثغرة) وقد كلَّف رسول اللّه ﷺ خمسين رجلاً من الرماة بمراقبة ذلك الشِعب، وحماية ظهر الجيش الإسلاميّ، وأمَّر عليهم عبد اللّه بن جبير، وكان قد أمر قائدهم بأن ينضحوا الخيل ويدفعوها عن المسلمين بالنبل، ويمنعوا عناصر العدوّ من التسلل من خلالها، ولا يغادروا ذلك المكان، سواء انتصر المسلمون أم انهزموا، غَلَبوا أم غُلبُوا.

وفعل الرماة ذلك، فقد كانوا في أثناء المعركة يحمون ظهور المسلمين، ويرشقون خيل المشركين بالنبل فتولِّي هاربة، حتّى إذا ظفر النبيّ وأصحابه، وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوون على شيء، وقد تركوا على أرض المعركة غنائم وأموالاً كثيرة، وقد تبعهم بعض رجال المسلمين ممّن بايع رسول اللّه ﷺ على بذل النفس في سبيل اللّه، ومضوا يضعون السلاح فيهم حتّى أجهضوهم عن العسكر، أمَّا أكثر المسلمين فقد وقعوا ينتهبون العسكر ويجمعون الغنائم، تاركين ملاحقة العدوّ وقد أغمدوا السيوف، ونزلوا عن الخيول ظنّاً بأنَّ الأمر قد انتهى.

فلما رأى الرماة المسؤولون عن مراقبة الشِعب ذلك قالوا لأنفسهم: ولِمَ نقيمُ هنا من غير شيء وقد هزَم اللّه العدوّ فلنذهب ونغنم مع إخواننا.

فقال لهم أميرهم عبد اللّه بن جبير: ألم تعلموا أنَّ رسول اللّه ﷺ قال لكم: احموا ظهورَنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنِمنا فلا تشركونا، احموا ظهورنا؟

ولكن أكثر الرماة خالفوا أمر قائدهم هذا وقالوا: لم يرد رسول اللّه ﷺ

هذا، وقد أذلَّ اللّه المشركين وهزمهم. ولهذا نزل أربعون رجلاً من الرماة من الجبل، ودخلوا في عسكر المشركين ينتهبون مع غيرهم من المسلمين الأموال، وقد تركوا موضعهم الاستراتيجيّ في الجبل، ولم يبقَ مع عبد اللّه بن جبير إلّا عشرة رجال!

وهنا استغل خالد بن الوليد، قلّة الرماة في ثغرة الجبل، وكان قد حاول مراراً أن يتسلّل منها، ولكنّه كان يقابلُ في كلّ مرّة بنبال الرماة، فحمل بمن معه من الرجال على الرماة في حملة التفافيَّة، وبعد أن قاتل من بقي عند الثغرة وقتلهم بأجمعهم، انحدر من الجبل وهاجم المسلمين الذين كانوا منشغلين بجمع الغنائم، وغافلين عما جرى فوق الجبل، وأوقعوا في المسلمين ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح، ورمياً بالنبال، ورضخاً بالحجارة، وهم يصيحون تقويةً لجنود المشركين.

فتفرقت جموع المسلمين، وعادت فلول قريش تساعد خالداً وجماعته، وأحاطوا جميعاً بالمسلمين من الأمام والخلف، وجعل المسلمون يقاتلون حتّى قُتل منهم سبعون رجلاً.

إنَّ هذه النكسة تعود إلى مخالفة الرماة لأوامر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وعدم انضباطهم تحت تأثير المطامع الماديّة، وتركهم ذلك المكان الاستراتيجيّ عسكريّاً، والذي اهتمَّ به القائد الأعلى صلى الله عليه وآله وسلم، وأكّد بشدَّة على المحافظة عليه، ودفع أيّ هجوم من قِبَل العدوّ عليه. وبذلك فتحوا الطريق من حيث لا يشعرون للعدوّ، بحيث هاجمتهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد، فدخل إلى أرض المعركة من ظهر الجيش الإسلامي، ووجّه إلى المسلمين تلك الضربة النكراء!

ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٤٠ (بتصرّف)

